



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٣٤

مخيم يا وطن

(رواية)

دعد رشراش الناصر

الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الأدبيات في مجال الرواية

في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

العبدون
Obéion

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصر، دعد رشراش

مخيم يا وطن./ دعد رشراش الناصر.- الرياض، ١٤٣٠هـ

١٢٨ ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٣-٧٤٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

١٤٣٠/ ٣٤٠٩

ديوي ٨١٣،٠٨١

رقم الإيداع: ١٤٣٠/ ٣٤٠٩

ردمك: ٣-٧٤٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

٢٠١٠هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

التوزيع: مكتبة

العبيكان

الناشر: المكتبة

العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هدايا

فيأخذ مني جواز السفر...
وأظل في ارتحالي الدفيء
أهاجر إليك...
أبتها المدينة الحلم...
أبها الوطن...
يا أمي...

عندما يزهر موجك أشجاراً من اللوز
والدحنون...
أمدُ في عينيك المدينتين...
شريدة اغترابي العتيق...
أرتمي على مرفئك الذي نامر عن
الشراع...



لم يكن شتاء ٩٣ يعني شيئاً ذا أهمية لمخيم العودة... الحياة تسير برتابة وبؤس مقيتين، وكأن الوجود شرع في طقوس جنائزية، لا يزال لحن الموت السرمدي فيها الصوت الوحيد المعلن الذي تفقهه الأشياء.. صفائح (الزينك) الممتدة على أسقف البيوت المتراسة، المهترئة تقوم كل يوم بدور بطولي نبيل، وهي تتصدى لأشعة الشمس، طاردة النور، ومبعثرة لأي حلم وليد بالضياء، لتظل كل القلوب الوجلة الخائفة الساكنة فيها.. الغارقة في بحر أسي لا شاطئ له، تعب من أغوار الظلام، فتتشكل ملامحها سوداً أدمنت عليه منذ النكسة الأولى..

تلك القسمات المجبولة بصدى الهزيمة والموت تنصهر كلها وجهاً واحداً بأثماً مريراً ينقطر في ذاكرة السقوط والانحدار قطرة..قطرة.. وتستحيل كل الأشياء حواليه مرايا؛ لتعكس وجهه الشائه الشريد بقايا إنسان بلا عنوان.. ولا هوية.. ولا وطن حتى تلك الأكوام القذرة من قطرات الماء التي تشوبها الحكايا المغدورة تترد بجرّاً يلتهم الفرحة في قلوب الصغار، يتراكون حفاة عراة، وهم يدركون الموت سطور

لعبتهم الأولى والوحيدة.. البحر!!.. يا للسخرية!!!.. عندما كانت «بيارات»^(*) البرتقال في المدن العريقة التي ترتمي على الشواطئ أسطورة من الحسن والجمال، ترقب أولئك الحثالة الذين جاؤوا من الشتات يبحثون عن وطن.. كانت تشيح بوجهها ترفعاً.. وتمد يدها الوضيئة متوعة أن ترميهم بقايا وأشلاء في البحر الذي تقلد صدرها زهرة أرجوانية استحالت أوراقها ناراً تحول البحر طوفاناً يرميها في هوامش الزمن قضية منسية.. ووجعاً لا ينتهي على الطرقات التي تتلوى أملاً بعودة لا تجيء!!..

تلك الرتبة والإحساس بالموت الساكن المتوحد في كل الأشياء لم يكن ليعتمر عوالم تلك الشابة التي انتصبت قامة سوداء شفيفة لم تفتح عيناها يوماً على الضياع.. وإن كان ذلك الشتات لم يضيف إلى الموت الممتد في شرايين المخيم بقدم الصيدلانية الشابة شيئاً.. إلا أنه انقلب في عوالمها عاصفة تذر وتهدد وتعلن الوجود إعصاراً يؤذن باقتراب النهاية لبداية لم تكد تخطو خطوتها الأولى.. مريم العموري شابة في السابعة والعشرين من عمرها.. خريجة قسم الصيدلة من جامعة كاليفورنيا الأمريكية الشهيرة.. وجهها طيف فلسطيني كرمي لم تستطع أمريكا أن تخفي مسحته السهلية التي ظلت نسائمه تنشق سحر البحر الممتد شرقها.. هناك حيث الخضيرة وأم خالد وبتانيا وغيرها ممن عشقنا البحر حياة، فأنصهرن فيه حوريات يتلون أسطورة القداسة ويغنين ترنيمات الطهر العتيق.. طيف فلسطيني لم يلتصق بالجذور مرة.. ولا ردد أغنية النبض الآتي من هناك.. من رحم الأرض

(*) البيارة في لغة أهل فلسطين: البستان أو الحقل المزروع بالبرتقال والليمون.



التي تمتد وحيًا يحكي بهمس شفيف أمومة ندية فجعية!. لم ترسب في ذهن الفتاة ذات الوجه الأسمر المشرب بحمرة شفق حكاية الوطن قبل هذه الأسابيع القليلة الأخيرة..

كانت أمريكا بأجوائها الساحرة وطنًا حانيًا بسط ظله الرهيف في عوالمها الصغيرة.. أمريكا الرائعة وطن الطفولة الغضة البريئة.. وطن الانطلاقة الأولى.. والحب الأول.. وطن الحياة التي ترسم الكون كله أطيافًا من قوس قزح، فتمتطيه سهوة جواد.. ولم تكن لترسب في ذهنها تلك الحكاية المختلفة.. حكاية الأرض التي لم تدرّ لولا الحادث الأليم الذي أرقها وأفقدتها سر الحياة.. ذلك الحادث الذي تبدى عن عالم غريب قميء سيتشكل شاءت أم أبت ملامح لشتات اسمه وطن!..

مريم!.. جهزي جواز السفر والحقي بي فوراً.. سننتظرك في السيارة! كانت الكلمات اللاهثة والعيان اللتان اتسعتا خوفًا وهلعًا سكينًا غادرًا اخترق سكون ليلتها الدفيئة، فانفجرت نهرًا من دم كاد يأتي على صفحة عمرها الممتدة في أحلام شهرزاد.. ولم تستطع أن ترقب بعينيها المنشدهتين صخرة تقف عقبة في وجه التيار الهائج المنطلق من غيب لم يخطر لها على بال.. انتشرت صفحات الكتاب الذي تحمله على الرخام يأخذها في دوامة عاصفة إلى مجهول بعيد.. وانتشرت حبات الثريا شهبًا تحترق أمنياتها بالحياة!.

مريم.. سارعي.. لا وقت لدينا!.

جاءها صوته متقطعًا متحشرجًا صفة جديدة أيقظتها من شرودها المنقض عليها كوحش كاسر.. وما إن أفاقت من ذهولها حتى أمسكت

بجواز السفر وقطعت الدرج الواصل للطابق السفلي مخلفة وراءها ألف علامة استفهام وأماني هزيلة بعودة سريعة إلى مملكة أحلامها..

ما إن أغلقت عليها باب السيارة حتى تدفقت أسئلتها المحمومة الوجلة:

أبي.. إلى أين تأخذنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!.. ما هذا الخوف الذي يفترسك، فيحيلنا نهباً للهواجس والأفكار؟!.. لماذا تسابق الزمن، وكأنك تتحدى المستحيل؟!.. ما الذي حدث؟!.. وماذا سيكون؟!.. وحتى متى هذا الصمت لا يزول؟!

أوقف سيل كلماتها الهادر أنين أمها المكتوم التي تكورت على المقعد الأمامي جثة ساكنة، وقد دفنت وجهها الشاحب بين كفيها الراجفتين النحيلتين.. بينما غطى الليل عبراتها الشاهقة التي كادت تغرقها في موت محتوم.

ساد الصمت.. وقفت الأسئلة في الحلق غصة فناء بارد.. وفي الحين الذي أضاءت فيه طرقات ولاية كاليفورنيا استعداداً لسمر جديد لاه.. كان صوت محرك السيارة المتعالي يضيء دروباً جديدة لا عهد بها، ترسم خيوط المستقبل القادم خيوطاً سوداء تمتزج مع الليل حبل مشنقة يلتف على عنق هذه العائلة الصغيرة؛ ليكون السؤال الكبير: أتراها النهاية؟!

بعد زمن من السير السريع المحموم.. اصطفت السيارة في شارع فرعي خلف المطار.. نزل الجميع.. التقت النظرات بشكل عاجل قلق، وكأن الواحد منهم لم يكن ليجرؤ أن يثبت سؤاله المتوجس في روع الآخر.. وقف الأب يردد نظراته الثاقبة بين ساعته الذهبية التي علقها



في الجيب الداخلي لصداره الأسود والناحية الشمالية، حيث يفتح الشارع الفرعي على الشارع الرئيس، الذي كان من المفروض أن يطل منه صديقه القديم أحمد الزهراوي ليرمي في يديه الوصايا الأخيرة، ثم لينطلق عبر سرداب الغد الذي لا يأمن غوائله وعواقبه.. كانت الساعة تشير إلى الواحدة وثلاث وثلاثين دقيقة وخمس عشرة ثانية.. الأنفاس المترقبة تتحشر بين دقائق الساعة زفرة زفرة في ظل انتظار ساكن عصب لم يلبث أن دوّت في أرجائه عن الأم صرخة مكتومة وقعت على إثرها مغشياً عليها... سارع الزوج الذي يضرب أرقاماً موتورة؛ عل هاتفه النقال، بينما بذلت الصيدلانية الحائرة جهداً فائقاً في تمالك أعصابها لاستنقاذ أمه من نوبة حادة، فشرعت في إسعاف أولي ينظم نفسها الزاهق من هول مفاجأة تحددت ملامحها هلاكاً وبيلاً... لم تمض لحظات معدودات حتى كان إسعاف المطار واقفاً يمسك برفق تلك السيدة الأنيقة التي جاورتها فتاة تماثلها حسناً ورقياً فرضتا مبالغة خاصة في العناية بها..

استرخت على النقالة جسداً منهوكاً ضعيفاً... كانت أطراف تنورتها المخملية المسترسلة من جانبي النقالة تلوحان كأوراق خريفية متبسة آن وقت سقوطها وانسحاقها ذرات هامشية تلوكها أقدام العابرين إلى المجد والأضواء... ذات الأضواء التي تتسع مساحتها الآن في دواخلها، فتكشف غورها ركاماً هائلاً من الفجعية يخفي صورتها البشعة القميص الذي أزهز على بساطه عقد من اللؤلؤ هو آخر ما تبقى من الحياة التي ارتسمت هناك.. على أبراج الترف المرجاني الغريق!.

إن عليها أن تصحو.. لا وقت للألم!..

رمقته الصغيرة بحزن.. كانت تستشعر رغبة دفينة بالصراخ..
بالتساؤل.. بالانهيار.. لعلها لا تعايش هذا الليل المنذفع إليها بكل
وحشية يغرس أنيابة المسمومة في عينيها الحالمتين الصغيرتين..
ولكنها لم تستطع أيًا من ذلك، بل تسمرت بلا حراك تتنازعها الأفكار
كمعارضة أزياء أنيقة ارتمت ببلاهة وعجز في زاوية فاخرة من زوايا
فثريتنا في محل أرستقراطي كبير..

عفوا يا أنسة!.. هلا أتيت معنا؟

استجمعت قواها.. همت بالإجابة، لكن الأب الشريد باغتها
مجيبًا:

لا، يا سيدي.. علينا الانطلاق مع الرحلة الآتية.. لم يبقَ هناك
وقت.

هزّ رأسه..

حسنًا سنجري الفحوصات الأولية في سيارة الإسعاف، لكنني أعتذر
عن قبول طلبك إذا استدعت حالتها البقاء!.

لم يستطع أن يجيب.. سرقتة السيارة الفارهة القادمة من الناحية
الشمالية تقل صديقه أحمد الزهراوي.. أسرع إلى سيارته، متناولًا
منها طرودًا كبيرة حشيت بأوراق وأشياء كثيرة.. اتجه إلى صديقه..
كانت خطواته اليسيرة تنهب الأرض نهبًا، وكأنها تستدعي النهايات..
تفتح فوهة القمقم الذي كاد يخنقه، ويأتي على أنفاسه اللاهثة.. أما
هي، فقد انتصبت فريسة الأحداث المباغتة.. وقفت ينهشها السكون

البارد برودة الموتى تردد النظر بين الطبيب، وهو يجري فحوصاته المتلاحقة، وأبيها الذي بدا كريشة في مهب الريح.. كان يتحدث إلى صديق العائلة بسرعة مشيراً إلى المغلفات التي بين يديه.. تآثرت شعيراته السوداء على جبهته التي انحدر منها العرق لتكسو وجهه ذا الملامح الجادة النحيلة شحوباً وأرقاً.. لأول مرة نرى ظهره متقوساً.. أي هزيمة يا أبي، تحني ظهرك الصلب الشديد؟!.. أجهشت بالبكاء.. بدأت تهذي.. تباً لأولئك المنظرين.. تباً لكلماتهم التي كانت تسحرنا وتأخذ بألبابنا.. «لا شيء يجعلنا عظاماً غير ألم عظيم».. إن الألم مهما كان صغيراً ليحرق عوالم نضرة بهية، فلكانها لم تكن.. كأنها لم توجد في الذاكرة ذات مرة.. اعتنق الأب صديقه بجرارة، شد على يديه ساكباً آمالاً لا يدرى أتتحقق أم تغدو وهمماً لا يستطيعه ولا يدركه.. اتجه سريعاً صوب الفتاة والأم الطريجة.. هز كتف الطبيب دون أن ينظر في عيني أحد كأنه لا يجرؤ.. كأنه يحمل كاهله الهش عبء الذي حدث، وكل الذي سيحدث..

أرجوك سارع.. لم يبق على موعد الرحلة إلا دقائق معدودات..

حسناً سيدي.. إن السيدة بخير.. ارتفاع مفاجئ في الضغط، أعطيتها دواء سيتكفل بتسكين الألم إلى حين.. احرص على إعطائها العلاج الذي وصفته، سنوصي المضيف بها.

تلاحقت الأحداث بعد ذلك.. إجراءات المطار الرتيبة كانت تستهلكه وتستنفد أعصابه، في حين قبعت الأم المندهشة وفتاتها الصغيرة في حيرة لا تنتهي وصمت حاد نازف.. جلس الجميع في

أماكنهم.. لحظات وتقلع الطائفة.. لحظات وتنفصل الجذور عن رحم الأرض والذكريات الحلوة ولوجا لعالم مجهول غريب لم يتحدد من أبعاده شي إلا الخواء وإلا الغدر والفجعة.. ظل الأب مشدودا قلقا حتى تحركت الطائفة آخذة طريقها في الجو بالتدريج.. تنفس الصعداء.. استرخى جسده المنهك على المقعد الوثير.. فك ربطة العنق ووزارة القميص العلوية.. فرك صدره بقوة.. كانت نبضات قلبه تدق بعنف كم تدق طبول الحرب مؤذنة بالويل والدمار.. رويدا رويدا.. بدأت أنفاسه تهدأ.. فاستغرق في نوم عميق تاركا وراءه ضحيتين ترقبان المجهول بخوف وهلع!.

مرت ساعات تشكلت بظلمها الثقيل دهورا من الانتظار الصعب حتى أفاق الأب.. تعلق به الصغيرة ساهمة باكية.. اندفعت في وجهه تصرخ بحرقة وألم:

أبي! لا بد أن أفهم.. قل شيئاً.. هدى روعي وارحم صغيرتك يا أبي.. أرجوك.. ارحمني وقل شيئاً.. وارتمت على صدره ذابلة تذوي شيئاً فشيئاً..

لملم شعث كلماته، وبدأ أشياء غير مفهومة.. تكررت كلمة الوطن والغربة التي أن لها أن تنتهي.. كادت تجن.. عن أي وطن نبحت، وقد خلفناه وراءنا بكل ذكرياته وانطلاقاته الرائعة!.. ولماذا يتذكر وطننا آخر الآن؟!.. وما هو؟!.. وبأي حق نترك أمريكا بهذه الصورة المروعة!.. ومن الذي يزعم أنه عاش في غربة!.. لم يستطع أن يردد.. لم تملك يداه تبيداً لغيوم القهر الضبابية الراكدة في أعماقها.. لم

يقوأن يضمها إلى صدره، كما كان يفعل عندما تبكي وتتألم.. لم يقدر على رفع أنامله الراجفة ليمسح دموعها التي تحرق قلبه وتشكل الآتي انهزامًا وانكسارًا.. لم يقو على شيء، فعاد صريعًا يرتمي على مقعده الوثير يندب حظ فتاته وأمها التي اتسعت حدقتهاها تحديقان في السماء، حيث تبصران المستقبل المخيف سوادًا يطفى على كل شيء.

هبطت الطائرة بعد أن تلت المضيفة تعليمات الهبوط للسلامة العامة.. تحرك الجميع في هرج ومرج وفرح تهيؤًا لاستقبال الأعبة والصحاب.. ندت عن الأب ابتسامة صفراء في محاولة بأئسة مخففة تستجلب الأنس لقلبيهما.. ساروا بصمت جنائزي.. في القاعة الداخلية للمطار، ازدحم الناس لاستقبال القادمين، لأول مرة لم يستقبلهم أحد.. في المرات الكثيرة الماضية التي ارتحلوا فيها لأرجاء العالم كان لفييف من الأصدقاء والمعارف يقفون بصبر بالغ ينتظرون مجيئهم.. هذه المرة بدت القاعة فارغة خالية، لا أحد ينظر إليهم.. لا أحد يبحث عن وجوههم التي حوت عيونًا زائغة غائرة.. لا أحد يأبه لخطواتهم القلقة المتعثرة.. ساروا حتى وصلوا للباب الخارجي دون انعطاف لأخذ الحقائق والهدايا، لم يكن بحوزتهم شيء إلا الألم والقهر والرغبة الملحة في فهم ما كان!

أشار الأب بإصبعه المزرققة على أحدهم، فعاجل بإحضار سيارة من سيارات المطار المصطفة، فتح الباب الخلفي، فدخلت الأم بتثاقل، وأخذت مكانها بحركة آلية عند النافذة.. تلتها الفتاة التي لا زالت الأفكار تصطرع في رقعة وجهها ذي الملامح الناعمة الحائرة.. سارت السيارة في الليل الموحش بهدوء يقطعّه صوت الأب، وهو

يتحدث بروية ودون انسجام عن الأقدار، والوطن، والأهل الذين ينتظرون عودتهم!.

كان الوقت شتاء.. زخات المطر المنصبة تعزف لحن الموت الأبدى.. الريح تعصف بكل شيء.. بالأشجار.. بالمباني.. بالأفق الذي زرعه أمريكا في نفوسهم سنوات طوالاً.. بالأحلام الوردية التي تصوغ الحياة لوناً زاهياً شكلوه بفرشاتهم المترفة، حتى ليغدو جميعاً قشة قيمئة منكسرة في وجه هذه العاصفة المنذرة المتوعدة..

سارت السيارة ببطء تحفظاً من الانزلاقات والحوادث، ورويداً رويداً كانت تبتعد عن المباني السامقة الفارهة وتدخل في أحياء مختلفة متباينة تماماً حتى لكأنهما من بلدين مختلفين متضادين.. الشوارع تضيق.. البيوت تلوح صغيرة مهترئة متراسة كألعاب طفل مهشمة قديمة.. بعض الناس يركضون، وقد انكشفت أياديهم وصدورهم للبرد والمطر، وغرقت شعورهم المغبرة الخشنة بالماء المنهمر.. كان سعالهم دونياً مقززاً غريباً، سريعاً ما اختفى في تلك البيوت التي بدت مهجورة قذرة.

تشكل صوت الأب هذه المرة صفة قوية مزقت آخر أمل ببديل منطقي عندما جاءت كلماته مهتزة باردة:

هناك لو سمحت!.. سنتابع مشياً، فالطريق ضيق.

دس بيد السائق عملة حديدية غريبة.. فتح الباب الخلفي.. أمسك بيد صغيرته، وشد عليها شالها الحريري الذي لم يفلح في تدفئة جسدها الراجف.. ضم زوجته إليه، وأسرع المشي مشيراً إلى

بيت صغير من اللبن تغطى أعلاه بصفائح (زينكو) كما بقية البيوت، أعطت إيقاعاً متجدداً للموت المنصهر في كل حبة من حبات المطر النازفة فوق رؤوسهم..

انغrust أقدامهم في الوحل، وشربت أجسادهم الغضة أول فجيعة في هذا المكان الغريب الوضع.. التصق الأب بالباب، وجعل يدق بانفعال وعصبية.. لحظات وانفتح الباب عن وجه طفل ملتحف بغطاء مهترئ.. دخل الأب، وهو لا يزال ضاماً زوجته التي انحشرت بين صدره وجاكيته المصنوع من الجوخ الإنجليزي الفاخر باكية وجلة.. مدّ يده ملامساً يد الصغيرة التي بدت خطواتها مترددة حائرة.. انغلق الباب.. كان صريره موحشاً مخيفاً..

تجمعت العائلة حول الضيوف، بعد أن كانت قد التفت حول مدفأة قديمة انبعث منها رائحة الكاز، فشكلت سحباً ضبابية كريهة في الغرفة الصغيرة التي ارتمت على أرضها قطع من أواني ألمنيوم صغيرة اضطلعت بمهمة التقاط الماء المنحدر من الشقوق في صفائح (الزينك) التي سقفت البيت.. ذرعت مريم المكان بعينين غائرتين.. الغرفة لا تعدو أمتاراً ساذجة قليلة.. الوجوه ذات ملامح قاسية غريبة تركبت على أجساد باردة انطرحت عليها ببلاهة قطع صوفية مهترئة مختلفة الألوان.. الأطفال يركضون، وهم يرددون أغاني شعبية غريبة.. بينما تمددت هناك امرأة كبيرة في العمر، واستقلت قريباً منها كسرات جافة من خبز قديم.. كانت تردد بلا وعي: لا إله إلا الله.. وتسعل بجفاف كأنها تصرخ من قحف الأعماق.. اعتق الأب رجلاً عجوزاً، ثم قبل يديه.. جاءت كلماته متقطعة:

مرحباً أبي.. زوجتي.. صغيرتي مريم.

حدقت مريم في أبيها طويلاً.. امتزجت أمام عينيها كل الأجساد
البلهاء والقسمات الغريبة المعجونة بغبار المكان وبرودته.. امتزجت..
انصهرت بسرعة عجيبة وظلت تدور بها في دوامة عاصفة شديدة
تقذفها بعيداً.. حتى صرخت صرخة مدوية، فجرت فيها كل ما دار
في أعماقها من خوف وفجاعة، فجاءت الصرخة بركاناً هادراً انقذت
حممه وشظاياها في دواخلها ناراً تحرقها، حتى وقعت ساكنة سكون
الأموات على الأرض الباردة.. ارتطم رأسها المفجوع بأنية الحديد
التي انسكبت قطرات الماء منه، وظلت تدور إلى أن التصقت بيدها
المكتومة على الأرض بلا حراك!.





أفاقت على همسها الضبابي البعيد:

سنفقد ابتنا إن لم نفعل شيئاً.. مرّ أسبوع كامل، وهي على هذه الحال.

زفرت بضعف.. شدت على يد أبيها الباردة الساكنة:

مريم.. حمداً لله على سلامتكم!.

بادلته الحديث بصمت.. قلبت عينيها الفجيعتين في المكان،
فهوت تبكي على عبق عمرها الذي لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أيام
معدودات، حيث كان هناك.. في أرض الحياة الحقة التي انسطرت
حروفها الوضيئة مشكلة اسم أمريكا.. تلاحت أنفاسها.. انتصبت..
صرخت بصمت:

أبي، أريد أن أفهم كل شيء.. كل شيء!.

مريم.. يجب أن تدركي الواقع الذي سنجابه.. يجب.. مهما كان مرأاً.

أتوسل إليك يا أباي، لا تقدم الموت لصغيرتك التي تحب.. قل وترفق بي.

لاذت بالسكوت، وهي تحتضن فتاتها التي انطلقت تذوي في ربوع أسي لم تعده.. كان هذه المرة متماسكاً رابط الجأش:

- ذنبي الوحيد في كل الذي كان أنني أزمعت أن أظل شريفاً مؤمناً بقيمة الإخلاص والأمانة.. كان لا بد أن أتمسك بهذه الشعارات البراقة على الصعيد العملي مهما كلفني ذلك من تضحيات.. يجدر بصورتي التي لم تهتز في عيون الآخرين ألا تهتز أولاً في عيني.. كيف سأقف في المرأة وأحرق في عينين تزعمان منظومة رائعة من قيم لا تمت لهما بصلة!.

حدقت فيه طويلاً.. استرسل بثقة ممزوجة بأنة حزن أصيلة:

قررت أن أفصح كل التلاعبات والمؤامرات البشعة التي أرادوا أن تمر من بين يدي.. ظنوا أن رنين آلاف الدولارات سيتكفل بتخدير الضمير ولو إلى حين.. مريم.. تعلمين جيداً أن هذا لا يمكن أن يكون، وأن تحقيق منفعة ذاتية مهما كانت كبيرة لن تكون على حساب أحد بأي حال من الأحوال.. دبرت الأمور، واتصلت مع المحامي.. كانوا قد راقبوا خطواتي خطوة خطوة تحفظاً من أي مفاجآت.. برقية التهديد كانت على مكنتي بعد دقائق معدودات!.

جحظت عيناها.. التصقت بالأم التي تكورت ببؤس وانشدها..

كان كل شيء في القائمة.. حياتي.. حياتك.. حياة أمك.. ممتلكاتنا.. أثق بقدرتهم على كل شيء.. إنها حرفتهم التي أمضوا



عمرًا في تحصيلها وتطويرها .. سارعت إلى الهاتف العمومي لاستشارة المحامي .. كلماته الهادئة الواثقة لم تلبث بعد لحظات أن تحولت إلى صرخة مغدورة أخيرة ..

انكتم نفسها اللاهث في بوتقة الخوف تجرها بعنف لرغبة أصيلة في البكاء .. انحدرت عبراتها باستسلام بالغ ..

طلقات النار فجرت صورتكما أمامي .. إن المتسع القليل الذي كنت أملك كان ينبغي أن يقوم بكل شيء .. كل شيء .. استقاذ حياتنا جميعاً .. والإنقاذ كان يعني الهرب، ولو إلى حين !.

كانت الحقيقة التي تحوم حواليتها في الأثير المسكون بأنفاس أولئك الغرباء مفجعة قاتلة .. توقع الريح هذه المرة كان يؤصل في أعماقها فكرة الحرمان .. فقدان الذي يعني شيئاً واحداً .. يعني الخسارة المطلقة .. الموت الذي لا مفر منه .. تراخت يداها .. ارتمت على الفراش المهترئ الذي ضم جسدها الناعم، متتحية عن صدر أمها الذييح .. هزها بعنف .. كاد كاهلها ينساب في يده سقوطاً جديداً :

مريم ! .. يجب أن تكوني أقوى، يجب علينا جميعاً أن نقف مواجهين لهذه المصيبة .. عملت جهدي لخسارة أقل .. صديقي أحمد الزهراوي سيتكفل بالكثير .. يجب ألا نفقد الأمل .. مريم .. الأمل الذي كنت تردددينه دوماً لحن أنشودة يجب أن ينتصب حقيقة واقعة .. يجب .. مالنا الآن إلا هذا المكان، نعايشه حتى يشاء الله شيئاً ..

أغرقت في البكاء .. بينما مدت الأم يدها تتلمس بضعف جبهة الصغيرة، ووجهها الداوي المرتحل في غيبوبة طويلة !.

مرت مساءات دامسة باردة.. الحوادث الجديدة أضفت سكوناً زائداً على المكان.. الأب المعجوز الحائر راح في سجداته الطويلة يدعو لحفيدته المسكينة المستلقية هناك كجثة باردة.. بينما كان سعال زوجته الجاف يقطع سكون الليل.. تتبعه بتهليلها المتأني الدافئ: لا إله إلا الله... وبين الفينة والأخرى كانت زوجة ابنها المتوفى قبل سنوات معدودات تقوم لتضع العجين على الطابون.. إن تحوله إلى خبز يسري في عروقه بشيء من الحرارة كان مبعث سرور لابنيها الصغيرين.. وللعائلة جميعاً حيث يلتمون حوله، يقطعونه إلى لقيمات تنغمس في زيت الزيتون، فتبل ريقهم بجانب حبات البندورة (الطماطم) الصغيرة التي يعطي لونها القاني شعوراً مزيفاً بدفء منشود فقيد.. لم يأبه له كل من الزوجين الشاردين!

تملمت.. فتحت عينيها ببطء بالغ.. تنفست الأم الصعداء:

مريم.. حبيبتي.. هل أنت بخير؟!

همت بإغفاءة أخرى طويلة.. هروب آخر!.. ولكن صفة قوية على خدّها الصقيل باغتها، فأفزعتها..

صرخت بألم:

أمي! ماذا تفعلين؟!

مريم.. وأنت ماذا تفعلين؟!.. إن عينيك الغافلتين ترميان كل من حولك في دوائر النسيان.. في هامش حقير من دلالك الناعم الأناني!

أرجوك.. لا.. إن الألم يكاد يخنقني.. يقتلني.

أنت تحملين سكيناً تمررينه على أعناقنا جميعاً.. انظري حولك!
انظري جيداً.. الكل في استكانة وتضرع من أجلك.. وأنت لا تأبهين..
يا لئرجسيتك الغبية!.

تباً!.. أنت لا تدريين وجعي.. إن عوالمي كلها تنهار أمام عيني..
أنتي أفقد كل شيء.. كل شيء!.

وأين ذهبت كل تلك السطور البراقة التي كنت تتحدثين فيها عن
القوة والأمل والتحدي!؟

كلمات.. مجرد كلمات لم أظن يوماً أن أحيها واقعاً مريراً كهذا!
تعترفين إذاً بعبثية عمرك!.

أتوسل إليك ألا تزيدني أعباء أساي.. إن عمري يزهد بين يدي.
إنك لا تكلفين نفسك عناء التفكير!.. مجرد التفكير بغد أفضل!.

وكيف؟ ألم تسمعي أبي، وهو يقص خسارتنا البائسة بهذه البساطة
المفجعة؟

ولماذا لم تأملي خيراً بصديق العائلة.. إن أحمد الزهراوي قد
يستطيع استنقاذ شيء من الرصيد البنكي أو العقارات.. قد نعيش في
مكان آخر في وقت آخر!.

لا تؤمليني بشيء بعيد.. اتركيني.. اتركيني أغرق وأموت.. فهذا
خير من الحياة في هذا المكان الحقيير!.

مريم.. أنت ضعيفة.. أضعف من كل تلك الحشرات التي لم تكفّي
عن التعريض بها وشتما هنا!.

اتركيني وشأني.. اتركيني.

كيف أتركك؟.. يجب أن تنهضي.. يجب أن تفكري بطريقة أخرى..
من أجلك.. ومن أجلنا جميعاً.

لا أستطيع.. الموت خير من لحظة بأسة في هذا المكان القميء..
تَبًا!.. كيف يستطيعون الحياة؟!

اتركي طبقيتك جانباً.. أين إنسانيتك؟

لا تفلسفي الأمور.. اتركيني.. ودعي حزني وشأنه.. أريد أن أبكي...
أموت.

شئت أم أبيت يا مريم، فإنك لن تتشقي إلا هواء المخيم.. ولن
تأكلي سوى خبزه المقطور بالزيت الموحش!.

تهدديني؟!

بل أكشف لك الواقع.. وسيظل كذلك إن لم تفكري بغد أفضل.

وكيف؟.. كيف السبيل إلى الأمل؟!.. إنه محض غياب.. غياب!.

والذي تفعلينه الآن.. أهو محض عبقرية؟!

أرجوك.. ارحمي ضعفي.

ارحمي نفسك يا مريم.. ارحمي كل من قبع حولك يستجدي
قوتك.



أريد أن أحيأ ألمي.. إن هذا حقي.. حقي!.

ليس حقك في شيء..

اتركي كاهلي.. لا تعنفيني بهذه القوة.. أرجوك.. تكادين تفصيلينه
عن جسدي.. أرجوك.. آآه!.

قطرات الماء لا زالت تصطك بالأواني النحاسية المترامية هنا
وهناك تعطي إيقاعاً متجدداً باللحن الجنائزي يظل يستطرد ويعلو
إزاء الصمت المخيم المطبق والشفاه المتيبسة التي لم تنبس عن بنت
شفة.. اللهم إلا ذلك السعال الجاف المتردد من قحف الأعماق.. تتردد
في أرجائه من بعد تلك العبارات الموقنة الراجفة: لا إله إلا الله!..





إنهم أنصاف بشرًا.

إنهم فقراء!.

والقناعة التي يقتاتونها.. أهي فقر كذلك؟.

هي التشرذم يا مريم.. حيث لا أمان ولا وطن!.

أبي.. إننا الآن لا نعيش على سطح الأرض.. نحن في نفق مظلم
نتن، لن تطوله الشمس والهواء!.

الأقدار يا عزيزتي.. فما ذنب الضحايا؟.

ضحايا جهلهم يا أبي.. هم الذين شقوا طريق تعاستهم.. ألا ترى!..
إن هذه الوجوه لا تنذر إلا بالسوء والفشل!.

صدقيني يا عزيزتي.. لقد دارت رحى الزمان، فأطبقت على
المستضعفين الذين لا يملكون شيئاً.. ذات يوم كانوا يملكون قسماً
نضرة كملامحك الحلوة!.

أبي!.. هؤلاء!..

مريم.. تتردد في أجسادهم النحيلة أنفاس بشرية.. كيف لا تدركين ذلك، وقد كنت عضوة في جمعية المحافظة على حقوق الإنسان؟

أبي!..

آسف.. لست أباك!.

ارتدت للوراء..

أريد هذا الدواء لو سمحت!.

أخذت الوصفة بعد أن تنحت عن المقعد المصنوع من القش في هذه الصيدلية القميئة.. لعلها يا مريم، تغير شيئاً من الملل الذي تحسین به!.. فضتها بهدوء.. كانت الكلمات لا تزال تهجس في خاطرها.. «تتردد في أجسادهم النحيلة أنفاس بشرية».. صدقت يا أبي.. أنفاس بشرية غبية بلهاء.. لبيتك تقف بجواري الآن؛ لترى كيف ينتصب هذا الظهر الشاب المتقوس!.. ترى لو كنت شرطياً.. لو كنت سجاناً كيف سيقف هذا الأبله أمامي؟!.. تياً.. إنه لا يستحق حتى أن أقف لإحضار الدواء له.. أنصاف بشر.. شئتم أم أبيتم أنتم لا تشكلون نمطاً بشرياً متكاملًا.. صورتكم فحسب تحكي أنكم من هذه السلالة.. أما نفوسكم فلا يمكن أن تكون برقي النفس البشرية.. أنتم محض حثالات ترتمون على هامش الزمن مركومين منسيين.. ربا.. متى سيصل خطاب الزهراوي؟.. متى؟!.. خطت كلمات سريعة على علبة الدواء تحكي أوقات تناول الدواء والجرعات اللازمة.. مدت يدها ببرود.. أخذت

العلبة.. قلبها متفحصاً الثمن.. كان الرقم مفاجئاً كبيراً.. حدق في عينيها بصمت.. بادرته:

ما بك؟

لا أحمل كل هذا المبلغ الآن.

المبلغ!.. أتسمي سعر هذه العلبة مبلغاً؟!

أرجوك.. هل أستطيع أن أدفع نصف الثمن الآن، حتى أدبر الباقي؟

ردت بعنف:

بالطبع لا.. إن لم تكن تملك النقود فلا حاجة لك بالدواء..

أرجوك!

أرجوك.. لاتهدر وقتي!

استدار صوب الباب.. كان يقبض على الوصفة بحرص متمماً بكلمات متلاحقة غير مترابطة.. حدق في عينيها البرجوازيتين بحنق، ولكنه لم يتفوه بكلمة.. خرج مسرعاً..

لم يكن إيقاع خطوه المضطرب بأشد اضطراباً من خفق قلبها الصغير.. لماذا تقف هذا الموقف غير الإنساني؟.. لماذا لا تستطيع أن تبصر في عينيها نظرات الحاجة واللهفة؟.. لماذا تتشكل هي إنساناً غريباً آخر؟.. ولكن!.. من يبصر في عيني حاجتي للأمان؟.. من؟.. من يحدق في داخلي الخرب؟.. إن لحظة قلق واحدة أعيشها الآن تساوي

كل عمر كم المجهول بالخوف والألم.. إن عمري يضيع من بين يدي..
ينكسر كأبسط ما تنكسر قطعة زجاج في شارع من شوارعكم القذرة..
لماذا؟.. لماذا تحملني أعباء نظراتك الحاقدة؟.. لماذا؟.. أنا خائفة
كما أنت خائف.. قلقة.. حزينة.. هبني لحظة أمان، فأعطك ما تريد..
لكنك أعجز من ذلك.. أعجز.. ولماذا يا أبي، تقنعني بهذا المكان حتى
يرد علينا صديقك؟ ولماذا أنساق وراء نفسي فأتي إلى هنا؟.. أدرك
تماماً أنني لن أستطيع معاشة هؤلاء الناس! فلماذا أبقى؟.. لماذا؟..
لماذا؟..

ارتمت على الكرسي الصغير المصنوع من القش ضعيفة حزينة..
كانت نظراتها تخترق كل شيء لتصل إلى سد كبير مظلم من المجهول،
فتحرك يديها بعصبية كأنها تريد أن تبعد تلك الهواجس سريعاً؛ حتى
لا تتشكل في ذهنها حقائق موحشة تخيفها وترعبها.. مرة أخرى تحديق
في أسماء المحلات التي تقف بلا هوية ولا عنوان.. بقالة العودة..
مخبز حطين.. القدس للحداثة.. الناس يسرون بحركة رتيبة مؤلمة..
وصوت الأطفال وهم يلعبون بالكرة التي صنعوها من بقايا الأقمشة
لتنحشر بعد ذلك في كيس من النايلون ضوءاً لا طاقة لها بها..

اقتربت من باب الصيدلية الزجاجي لتغلقه، فترتاح من أولئك
الصغار المزعجين.. من الغريب حقاً أنهم سعداء بكرتهم الساذجة..
أحالتها ذلك المنظر إلى الحديقة العامة في ولاية متشجن.. يومها
كانت ترتدي فستاناً حارياً أزرق اللون تداخلت فيه أشكال ورود بيضاء
صغيرة ناعمة، وقد زُمَّ أعلاه عند منطقة الصدر متوسطاً إياه وردة
بيضاء كبيرة لينساب بعد ذلك باتساع جميل.. وتقلدت شعرها الأسود

الناعم قبعة من ذات اللون كان قد استلقى على طرفها الأيمن (بروش) صغير يحمل شكل أرنب صغير يقدم سلة ورد من النرجس ربطت بنطاق أزرق كزرقة السماء الصافية انساب حتى الأذن.. كان عمرها آنذاك لا يتجاوز السنين الأربع، لكنها أحسنت الجلوس على المقاعد، حيث دلت قدميها الصغيرتين تلوح بهما.. حتى لمحت مهرجاً يحمل كرات صغيرة من بعيد.. نزلت سريعاً.. وبعبارة مفهومة أومأت إلى أبيها أن يبتاع لها واحدة.. دقائق معدودات وكانت الكرة بين يديها الصغيرتين تلعب بها.. فتارة تركلها بقدمها وأخرى تجلس عليها حتى تقع على النجيل الممتد بساطاً أخضر رائع الخضرة.. تذكر تماماً كيف وقفت حائرة إزاء ذلك النتوء البارز في الكرة.

جلست على العشب مادة رجليها الصغيرتين.. وبدأت بعملية استكشاف جاد للتعرف على ذلك النتوء.. شدته بيدها اليمنى فانخلعت فوهته وجرى الهواء في وجهها، وقد طارت الكرة إلى أمتار قليلة.. رجعت للوراء وأخذت تبكي في حين انطلقت ضحكات من حولها من المعارف ممن راقبوا تحركاتها ومغامرتها الطفلة البريئة!.. ضحكت.. لكن ضحكتها انكسرت على إثر بكاء طفل أشج خارج الصيدلية.. حتى ذكرياتي تفسدونها بحماقاتكم!.. ما الذي يا أبي، رمانى في هذا الوحل الآسن؟.. وحتى متى؟.. تذكرت!.. لا بد أن خطاب الزهراوي قد وصل اليوم.. لا بد.. هكذا وعد أبي.. سأعود للمنزل.. هناك على كل حال غرفة أتوارى فيها عن الناس.. وإذا سألتني صاحب الصيدلية، فليقل له أبي ما شاء.. أخذت معطفها الجديد.. وضعتته على كتفيها.. وقفت بجانب الباب من الخارج.. وأشارت إلى أحدهم:



أنت!.. لو سمحت.

ماذا تريد؟

أنزل لي باب الصيدلية.

استفزته النبذة المتعالية..

ألا تستطيعين القيام بذلك..

أنت غبي.. لو أنني أستطيع ما ناديتك.

وأنا كذلك لا أستطيع.. ألا ترينني ألعب بالكرة.

همت بصفعه.. ولكن صوتاً ردها!.

لا بأس سأقوم بذلك.

مدّ يديه إلى أعلى الباب، وسحبه بخفة وقوة.

أين المفتاح؟

خذ.

فتح القفل.. ثم أدخله في حديدة معقوفة مثبتة في الأرض.. في أمريكا لم تكن تضطر لذلك أبداً.. كان «الريموت كونترول» يتكفل بذلك.. كم سنة ضوئية يا ترى تحتاجون حتى تصلوا لهذه المرحلة؟

تفضلي..

شكراً..

قالتها ببرود.. وضعت المفتاح في حقيبتها ومشت بشرود وحذر؛ خشية أن ترشقها المياه القذرة الملوثة التي احتلت المكان.. أحمد الزهراوي.. هل تدري يا سيدي، كيف تملأ الأفق أملاً؟.. لم تعد إنساناً عادياً إطلاقاً.. أنت الآن أسطورة.. أسطورة حقيقية لنا الثلاثة على الأقل.. أعترف أنك تحتل كل مساحات تفكيري.. إن صوتك إذ يحمل نبأ العودة ليسري في عروقي قطرة قطرة.. أتوسل إليك.. أضرع إليك أن تلقي بخبر ما.. إن أي حرف منك قد يعني حياة أخرى.. أرجوك لا تبطئ.. أرجوك..

كادت تتعثر.. الحمد لله.. لم أقع.. ولن أقع.. لن أتلوث بحطام هذا المخيم.. لن أتلوث قدر ذرة ببؤسه وانسحاقه.. لن ينال مني.. وسأعود.. سأعود إلى أمريكا وأحيا مستقبلي.. سأناقش رسالة الدكتوراه، وسأضع اللبنة الأخيرة التي تحدد مركزي العلمي المرموق لأسير إلى نجاحات أخرى.. و...

كادت تصل المجد لولا كرة طائشة ممزوجة بالوحد انحدرت عبر التلة القريبة لتلطح ثوبها الأنيق.. أنفاسها البرجوازية العالية.. صمت الأطفال إزاء وجهها المنذر بالعاصفة.. كادت تحطم كل شيء.. تلعن كل شيء.. كانت تتمنى أن تقلب المخيم رأساً على عقب، فتجد نفسها خارج إطاره الملوث.. وتجد أولئك الصغار المتوحشين، وقد صاروا تحت التراب.. لم تفعل شيئاً من ذلك.. انطوت على حنقها المأزوم.. سارت، وقد انفجرت من الداخل.. تعالت أصوات الأطفال..

ألم أقل لك.. إنها لم تفعل شيئاً.

يبدو أنها ضعيفة لا تفعل شيئاً..

كرة وحلية أخرى اندفعت من الخلف.. التفتت بسرعة وراءها.. كانت الكرة قد تضخم حجمها أضعافاً كثيرة.. خافت.. ركضت.. خرجت من الكرة كرة أخرى.. وأخرى.. عشرات الكرات المليئة بالوحل والحشرات تندفع إليها من الخلف.. ركضت بأقصى سرعة تستطيعها.. كان لهاثها المتحشرج يتردد دقات طبول حرب بشعة تستهدفها هي.. أنت بصوت مرتفع.. الكرات تندفع تحيطها من كل جانب.. عشرات.. مئات الكرات.. آه.. إنها تخنقها.. صرخت بأعلى صوتها.. صرخت وقدمها الكليتان لا تزالان تبحثنان عن منفذ لنفسها المخنوق... تعالت ضحكات الأطفال:

مجنونة!.

أرايتم كيف أخافتها كرتي؟.

ارتمت على الباب الخارجي للمنزل.. طرقت بخوف واضطراب.. جاءت طرقاتها ضعيفة.. انفتح الباب عن وجه الجد.. قال بصوت متهدج:

أهلاً مريم.. عدت مبكرة!.

لم تجب... أسرعت إلى حيث أبوها وأمها اللذان انحشرا في زاوية من زوايا الغرفة.. دس بسرعة ورقة صغيرة كان يمسك بها في جيبه.. تبادل وزوجته نظرات ساكنة زائفة.. ركعت على ركبتها:

أبي.. قل: إن رسالة ما وصلت من الزهراوي!.

تصنع السكينة.. مسح على رأسها الصغير..

نعم عزيزتي.. نعم..

ردت بتلهف وشوق:

وماذا يقول؟

رفعت الشركة قضية.. وكُلَّ محامياً ممتازاً.. لكنه يقول: إن الأمور
تسير لصالحنا.. الوضع مبشر يا مريم.. مبشر يا صغيرتي.

قبلته بحرارة:

أرجو ذلك يا أبي.. أرجو ذلك!

تعالى صوت الجدة الممزوج بسعال جاف:

الأكل جاهز.

رمقتها بألم.. نفضت ثوبها الملطخ، وقالت بعصبية:

وتسمينه طعاماً؟

تدخل الأب سريعاً:

إنها لا تقصد يا أمي.. هي فقط متعبة من الدوام في الصيدلية.

وضعت صينية القش التي ارتمت عليها كسرات من الخبز بجانب
زيت وزعتر ويضع حبات من البندورة.. قالت:

لما طردونا من ديارنا قالوا: إنهم لا يقصدون.. تعالي يا سمية..

تعالى كلي ونادي الصغار.. إنهم منذ الصباح ما أكلوا!



انسحبت الأم بهدوء.. بينما جلس الأب.. ربت على كتف العجوز:
اعذريها يا أمي.. تعبت أعصابها من الحالة التي تعيش فيها..
سعلت..

اللَّهُ يعين يا ابني.. اللَّهُ يعين.. ولو كانت في حالة حرب، كيف يا
ترى ستكون أعصابها؟!

قالت سمية، وهي تطعم أحد الصغيرين اليتيمين:

واللَّهُ يا عمتي، ما أحد يعرف.. الحرب مرة.

رد الصغير ضاحكاً:...

والجوع مر.. «طعميني يمًا»!

تابع الجميع الطعام بسكون وصمت.. بين لحظة وأخرى كان صوت
الصغيرة يرتفع بالبكاء يتلوه صوت الأم، وهي تحاول إقناعها بالمكتوب
حتى يشاء اللَّهُ شيئاً.. بينما غاصت عنق الأب في قميصه حياءً من
العجوزين اللذين دأبا على تغميس الخبز بالزيت بصمت ورتابة.

في المساء افترشت حجر أمها تستجدي شيئاً من الدفء والأمان..
منذ وصلت هذه العائلة الفجيعة والصمت عادة في الدار.. رفع العجوز
صوته معلناً انتهاء صلاته:

السلام عليكم ورحمة اللَّهِ.. السلام عليكم ورحمة اللَّهِ..

بادره الصغير:

تقبل الله يا «جدو»..

منا ومنكم.. منا ومنكم يا ولدي..

وقعت عيناه الغائرتان على العجوز التي انكبت على عيدان القش

تصنع منها سلة..

يعطيك العافية يا حاجة.

الله يعافيك يا حاج.. يتقبل الله.

منا ومنكم إن شاء الله..

قالت، وهي لا تزال مثبتة عينيها على القش..

زارتنا اليوم أم محمد.

قاطعتها سمية..

تفضلي يا عمتي.. الشاي سخن يمكن يعطيك قليلاً من الدفاء.

والله يا عمتي بعد «دفا الوطن ما فيه».. هاتي الشاي..

دارت على الجميع.. منظر الشاي كان يبعث شيئاً من الدفاء

فعلاً.. رشفت مريم عدة رشفات؛ عليها تدفئ أوصالها الباردة.. تابع

الجد ويده المهترزة تمسك كوب الشاي:

وهل قالت شيئاً؟

قالت وليتها لم تقل!.

خير يا حاجة.. إن شاء الله لا يكون ما في بالي!.

والله يا حاج، إنه هو.. لعنة الله على اليهود، وعلى الذي باع أرضاً
لعميل اليهود.

لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

حاولت والله أن أفهمهما.. لكنها ملت من حياة المخيم.. قالت: إن
الفلوس التي أخذتها مع التي كانت معها ممكن تشتري لها بيتاً صغيراً
في العاصمة..

بيع الأراضي لليهود سيجعل كل مكان مخيماً..

والله صحيح يا حاج.. والله صحيح!...

تريدون إدانة كل من يسعى للنور.. كل من يفتح طاقة جميلة
للحياة.. كم أتمنى أن أفهم ما يدور في أخلاذكم.. كم أتمنى أن أعرف
كيف تفكرون؟.. كيف تنظرون للوجود؟.. أف لحياتكم البائسة!.. إنها
ليست الأقدار يا أبي!.. إنها هم.. إن الشقاء هم الذين صنعوه بأيديهم،
فأدمنوا عليه.. أما سمعت ما تقول؟.. رفعت صوتها:

وليكن.. أليس من حقها؟!

ردت الجدة دون أن ترفع عينيها العجوزتين عن القش:

ليس من حق أحد أن يبيع فلسطين.

وما شأن هذا بذلك؟.

نظرت الجدة إليها.. هزت رأسها غير راضية.. رددت:

لا إله إلا الله.. الحق والله ليس عليك.. الحق على أبيك الذي لم يعلمك شيئاً.

بادر الأب:

أمي.. والله يا أمي ما هو عن جهل وقصد.. الدنيا أخذتنا..

سعلت بقوة..

والله يا ابني، صدق الذي قال: « اللي إيده في المي مش زي اللي إيده في النار».. وأمريكا كلها ماء.. جنة تنسي الإنسان وطنه!.

ما هكذا يا أمي..

قالت بقوة:

لكن اللقمة في الوطن ليست كالعز والجاه في غيره.. وفلسطين سوف ترجع، لكن ليس على يد الذين يقبضون الفلوس أو الذين هاجروا ونسوها.. فلسطين لأولادها الذين انحرقوا لما ضاعت!.

تدخل العجوز:

هدئي يا حاجة.. ما يصير إلا الخير إن شاء الله..

سعلت بألم...

صحيح يا حاجة.. الوطن غالٍ.. إن الجذور التي تعرف وطناً تمتد في ترابه الطاهر لن تلين أبداً.. لن تضعف أبداً.. منطلقك رائع.. وعقيدتك

صلبة. إنك تهينني العزاء والسلوى.. فصبراً.. صبراً يا مريم.. لا بد
أن تعودى إلى أمريكا.. إلى حيث الوطن والشمس والخلود.. يا جدة..
ينبغي أن تفهمي مشاعري أكثر من الآخرين.. إنني منقطعة الجذور
عن وطني.. عن الأرض والذكرى والمستقبل...

قطعت الجدة هواجسها المتلاحقة:

وأنت يا حاج.. أئن تتحدث مع (أبي محمد)؟

تحدثت إليه كثيراً.. لكن رأسه عنيد.. رفض إلا أن يقبض الثمن.

بكت الجدة:

يا حسرة.. يا فلسطين.. لكن ليس كل الناس مثل أبي محمد.. واللّه لو
جعت العمر كله ما أبيع ذرة من ترابك الغالي.. واللّه اشتقنا يا قدس.

أجهشت بالبكاء.. ظلت تسعل، وتردد بحزن:

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله!...

لأول مرة تصمت.. الحديث عن الوطن يثير كل مشاعرها.. كل
أحاسيسها الغضة البريئة المنطلقة نحو الحياة والدفء والأمان..
اللّه يا جدة.. ما أجمل أمريكا.. ترى لورأيتها هل ستحنين حقاً إلى
فلسطين؟..

راحت في نوم عميق تحن فيه إلى عالم الغيب والمجهول يقودها
الزهرراوي إلى الجنان المستعادة بعيداً عن كل ما هو عدا أمريكا
الوطن.. بعيداً عن فلسطين والبيوع التي لم تفهم سرها...



همست الأم:

لقد نامت..

رد بصوت خفيض، وقد أطرق ساهماً:

حسناً.. وليبقَ أمر الزهراوي سرّاً بيننا.. لعل الأيام تأتي بما ليس

في الحسبان!.





هذه المرة خطواتها كانت أكثر ثقة.. فها هو ذا أحمد الزهراوي
يثبت ولاءه ووفاءه للعائلة.. وعلى الرغم من أن الأمور لا تسير تماماً
على ما يرام، إلا أن وقفته الواثقة ووعوده المتلاحقة وتوكيله للمحامي
لتأتي عباراته المطمئنة طير سلام يرفرف على القلوب الخائفة كان
داعياً جيداً لأن ترى النور بشكل آخر مختلف هذه المرة..

لن أدع (سيمفونيتك) البائسة تضرب على أوتار قلبي.. أيها المخيم،
أنت عالم آخر لن أستطيع الانصهار فيه.. لكني أسير في طرقاتك
مستدعية حرارة الحياة التي أريد أنا.. ومن أجلي أنا.. أما أنت فعليك
أن تقف وتستدعي المستقبل الذي تحب.. كيف تنتظر من الآخرين أن
يفعلوا ذلك؟.. عجيب أمرك.. ترضى الموت وتنتظر، إذ تنتظر الحياة
من الآخرين!.. جلست على الكرسي الصغير المصنوع من القش..
ذات الأسماء تردد أمام ناظريها.. بقالة العودة.. مخبز حطين.. القدس
للحدادة.. الناس لا يزالون يسيرون بنفس الرتابة والسكون.. والله يا
زمن! لأول مرة أبصر حركة ساكنة.. يا إلهي.. إن فكرة استيلادي في

هذا المكان مرعبة.. أحمد الله.. والشكر لك يا زهراوي.. لوتدري
السحر الذي بثه خطابك في أوصالي.. لوتدرك اللون الذي أضفاه في
عيني الغائرتين، وأنا أقبع في هذا المكان البأس.. لكم أنا مدينة لك..
مدينة لك بأول أمل يطلع من بين ركامات اليأس التي أصابتي، فكادت
تقضي علي.. إن براعم التفاؤل رائعة روعة حروفك يا سيدي..

لم تكد تسترسل في أحلامها النضرة حتى أفاقت على ركلة قوية للباب
الزجاجي كادت تحطمه.. قفزت فزعة من مكانها.. صرخت بعنف:

غبي.. كلكم وحوش لا تعرفون كيف تتصرفون..

دخل مسرعاً.. كان منظره داعياً للخوف والهلع.. يده اليسرى كانت
تنزف دمًا، بينما استرخى الكم الأيمن لقميصه فارغاً على الجنب،
حيث غابت يده المقطوعة في عالم الغيب.. عيناه الجاحظتان.. وآهاته
المتوسلة ردتها للوراء.. جاء أنينه مستعطفًا مستغيثًا..

أرجوك.. ساعديني.. أكاد أموت!.

استقرت توسلاته في أعماقها.. رثت لحاله.. لنظراته التي أغرقت
في الوجع.. لدمائه النازفة تتقطر فيها أنفاسه، حتى ليقترب من
النزع الأخير.. أسرع إليه.. فحصت الجرح جيدًا.. لا مادة بحاجة
لإخراجها.. لا كسر في العظم.. وبحركة آلية سريعة ضغطت على الوريد
النازف لتقطع تدفق الدم.. عمقت الجرح أخيرًا.. إن هذا سيتكفل
بإنقاذ الوضع لحين وصول الطبيب.. أناته الصاعدة.. زفراته المغرقة
في الوجع والكتمان حفزتها لأن تبذل أقصى ما تستطيع.. كانت تند
عنه أنات بعيدة لا إرادية، وكأنه يحاول الصمود.. تماسكت:

لا بأس.. لحظات وينتهي كل شيء!.

يا لجرأتك!.. كيف تحتمل كل هذا الوجع.. حقاً مسكين أنت.. سيلتئم الجرح بعد شهور، ولن تستطيع يمناك أن تسعفك في شيء.. سيكون مجرد تناولك الطعام صعباً.. يا إلهي.. كل شيء يحوم حوله.. الموت والبؤس.. هل حقاً أنتم أحياء أم أموات في رداء حياة لا تجيء!؟..

كانت لحظات عسيرة شاقة.. جففت عرقها النازف كدمائه التي ملأت المكان.. غطت الجرح.. ثم حقنته أخيراً بمهدئ قوي.. استرخى أمامها كجثة تستعد للغياب في أعماق الأرض.. بارداً وجلاً كان.. فرشت على الأرض حصيرة صغيرة مددته عليها.. كان يرتجف من البرد والألم.. بدا وهو على الأرض كهامش مهمل.. وبحركة غير واعية خلعت معطفها وغطته..

يا إلهي.. ماذا أفعل؟.. كيف أدبر أمري؟.. إنني لا أستطيع استجوابه كما لا أستطيع استدعاء أحد.. أين المشفى؟.. أين الشرطة؟.. أين أنت يا أحمد الزهراوي، لتتقذني بورقة واحدة من كل هذا العذاب.. أبي.. نعم.. إنك من يستطيع تدبير الأمر!.

كانت الحادثة مدار الحوار مساء.. التفت العائلة حول الصغيرة المنقذة.. نظرات الدهشة والإعجاب لم تفارقهم جميعاً ولا سيما الصغيران اللذان انطلقت أسئلتهما بشكل سريع متلاحق.. بدت وهي تتوسطهم كأبي زيد الهلالي أو الشاطر علي الزبيق.. لم تستطع أن تخفي مسحة السعادة التي انتابتها، وهي محور حديث الجميع.. ولكنها بلا شك كانت مسحة مشوبة بالكثير من الألم.. لماذا لم أكن محور

الجميع في أمريكا؟.. عند الزملاء والصحب.. وفي مكان أكثر رقيًا من هذا؟.. جاء صوته دافئًا حبيبًا إلى قلبها:

- مريم.. كان عملك رائعًا..

- لم أستطع غير ذلك يا أبي.

- ها أنت تعودين لطبيعتك.

- أبي.. إنني أعود لطبيعتي، وأنا أحيا الأمل الذي علقنا به السيد أحمد الزهراوي.. لن تكون حياتي هنا أبدًا.

تصنع تقبل الكلمات.. لو تدرين يا عزيزتي، ما الذي يقوله السيد أحمد الزهراوي؟.. جاءت كلماته باردة:

- طبعاً.. طبعاً.. ستتابعين حياتك في أمريكا أحسن مما مضى.

مر شهر على الحادث الأليم.. جلست كما العادة على الكرسي الصغير المصنوع من القش.. إن الأيام تسيير.. وأبي يطلعني بين فترة وأخرى على تطورات القضية.. أعرف تمامًا أن مثل هذه القضايا تأخذ وقتًا طويلًا.. وحيث إن السيد أحمد الزهراوي هو الذي يتابعها بمركزه المرموق فلا بد من أمل مهما كان ضئيلاً.. إن الأمل بمجرد الخطو على تراب أمريكا مرة ثانية يستحق الحياة.. هب نسيم بارد حاملا ورقة بيضاء صغيرة.. نفذت من نافذة الصيدلية حتى استقرت على الطاولة الصغيرة أمامها.. فتحتها وهي ساهمة.. يا للمفاجأة!.. إنها من السيد أحمد الزهراوي.. فتحت عينيها جيداً.. نعم.. إنه هو.. وها هو النبأ المنتظر.. يا لروعتك يا سيدي!.. إن سطورك تعبق بالحياة

الرائعة.. كم أنت عظيم.. تلاحقت الأوراق التي حملها النسيم الدافئ عبر النافذة الصغيرة.. امتلأ الأفق بالأوراق التي خطَّ عليها توقيع السيد الزهراوي.. داعبت شعرها المسترسل.. فنهضت بخفة تفتح الباب.. لم يخب ظنها.. كانت الأوراق تتوارد بسلاسة وانسياب حاملة كل الآمال الحلوة بغد أمريكا.. كل الأوراق تستحيل وروداً تنتشر عند قدميها، واستحالت هي أميرة برجوازية صغيرة.. رقصت على الورد المتناثر في كل مكان.. أغمضت عينيها سعادة..

أخذت نفساً عميقاً، وكأنها تعرف الحياة للحظة.. ظلت تتراقص في الصالة الملكية كأجمل ما تكون أميرة مدللة.. امتلأت القاعة بالحضور.. الكل منبهر بجمالها الآخذ.. حركاتها الرشيقة الساحرة.. ألحان (السيمفونية) تتعالى.. تتعالى.. وهند آخر صوت (بتهوفيني) رائع وقفت.. انحنت.. تعالى التصفيق بينما أغرقت هي في حمرة متوردة خجلة.. أطرقت قليلاً.. ثم انتصبت.. رفعت عينيها استعداداً للحن جديد ورقص جديد..

كان الإيقاع هذه المرة صارخاً حاداً.. الأجساد البشرية التي اصطفت ببذلاتها الأنيقة قبل قليل تحولت إلى جردان ذات أنياب مسمومة تنقض عليها.. صرخت.. استغاثت.. ركضت.. الصالة تضيق بشدة.. انحشرت في زاوية ضئيلة من زواياها العفنة.. انقضت عليها الجردان بوحشية تمتص دمهـا الأزرق.. صرخت بأعلى صوتها.. جاء صوتها مكتوماً ضعيفاً.. ارتمت على الأرض غارقة في بحر دماها..
انفتح الباب:

مرحباً..

نظرت إليه بعينين مندهشتين:

أنت؟

جئت لأقول: شكراً.

هذا واجبي.

لا أدري لولاك في أي العوالم أكون؟

ها أنت ذا تنتصب بقوة.. إن قدرتك يوم جئتني ذبيحاً كانت مذهلة..
وها أنت ذا ترفل بقوتك.. فلماذا جئت؟.. أجئت لتعكس صورتي في
مراياك عاجزة حائرة.. لأتبدى أمامك وأمام عالمك الصغير المتوحش
إنسانة لا حول لي ولا قوة؟.. فليكن، أنا حقاً ضعيفة.. أتوسل إليك
أن تهبني صمودك لحظة لأكسر هذا القمقم البشع الذي يأتي على
أنفاسي لأخرج من خضم هذا البحر الذي تتعالى أمواجه ساحقة لأي
إرادة وليدة للحياة.. ليتك تحمل صورة الزهراوي.. ليتك تحمل حرفاً..
سطراً طالعاً من بين يديه..

أسمحين أن أقدم شيئاً؟

تابعت صمتها..

سحب قطعة مربعة متوسطة الحجم كانت قد استقرت تحت إبطه
القتيل.. أمسكها بشيء من عدم الاتزان.. قلبها بهدوء.. ثم نصبها بين
عينها السوداوين الجميلتين.. مدت يدها بترواً، ونزعت الغطاء الأبيض



الشفاف الذي لفها.. أحالت نظرها في هذا الشيء الغريب.. حدثت،
ثم ما كان منها إلا أن انفجرت ضاحكة:

هذه أنا؟..

ندت عنه ابتسامة انتصار..

هل أعجبتك؟..

لم تجب.. كانت لا تزال تستعبر اللوحة بين يديها.. لأول مرة
تبتسم.. تضحك منذ أتت المخيم:

حقاً إنها رائعة..

باستغراب:

حقاً!.. هل أعجبتك؟.

ثبتت عينيها على اللوحة.. قالت ضاحكة:

أنت مبدع حقاً.. منظرِك مضحك!.

لم أتوقع أبداً أن تعجبك!.

صمت قليلاً.. أردفت باسمه:

آه.. ماذا توقعت؟.

أدار عينيه بحركة مضحكة..

قل، وعليك الأمان!.

توقعت أن..

أخرج لوحة صغيرة بحجم الكف.. مد يده مسلماً إياها.. تتحى قليلاً.. نظرت في اللوحة.. ابتسمت.. ضحكت كثيراً..

أنت رهيب!..

في الحقيقة.. لم أتوقع أبداً أن تستقبليني في الصيدلية.. ولكن لا بد من أن أقول لك: شكراً.. كنت رائعة حينها.

ولماذا ظننت ذلك؟

بصراحة لم ينصحنى أحد بالاقتراب.

آه.. ماذا يقولون؟

يقولون: إنك لا تحسنين ودهم.. إنك تقومين بالواجب بأقل الواجب!.

صراحتك جيدة.. قالت وهي تنظر في اللوحة..

أعجبها رأسها الكبير الذي توارى برغم حجمه الغريب خلف نظارة ناصعة، وهي تمسك بإبرة ضخمة رسم عليها جمجمة قد استقلت على الفراش.. كان معلقاً في الهواء، وقد فغر فاه، بينما تكفلت دموعه المناسبة من طرفي العينين بإغراق الأدوية المتكومة في الصيدلية، فانطلقت تعوم في هذا البحر الموار..

نظرت ثانية في اللوحة الأخرى.. هذه المرة كانت يدها قد تضخمت كثيراً، حيث استطاعت أن تمسك به من ناحية العنق لترفعه عالياً ولتترك



عنقه متدلياً، وعينيه وقدميه تلوحان في الهواء بطريقة عشوائية.. أما الأدوية فقد قامت بمهمة بطولية عظيمة، حيث سلطت الأسلحة عليه وكانت الرصاصات تخرج متشكلة بملامح وجهها الغاضب.

لا يخفى أنك فنان جيد.

رسم الكريكاتير هوايتي.. إنها وجه حقيقي لي.

ولكن!..

أفهم ذلك.. إن الرسم بيد واحدة ممكن كذلك..

عليك إذاً أن تحرص عليها.. خبرني، ما سبب الحادث؟

خطأ صغير من عامل في المنجرة.. ردت بجذ:

يبدو أن عليكم أن تدفعوا الكثير جراً أخطائكم المتكررة.

ماذا تقصدون؟. بجد كذلك:

صمت صغير يرميكم في أحضان البؤس والحرمان؛ لتعيشوا كما

لا يليق بالبشر.

اندفع بعصبية:

أنت لا تعلمين شيئاً.

وأنت كذلك.. حسناً.. جهلي خير من علمكم الذي أوصلكم إلى

حال مضمّنية كهذه الحال!.

الأمر أكبر من ذلك.. أكبر بكثير.

فعلاً.. أكبر.. وأنتم لا تدركون شيئاً.

ما الذي تريدين منا أن ندركه؟.

غبي.. ألا ترى جيداً؟.

بل أرى.. أرى كل شيء.. وأرى تماماً كيف أنك تتشدين بحكمة
الجالس على الشاطئ، وهو ينصح الغرقى.

فنان حقاً!.. فلماذا لم تستطع أن ترسم هواء نظيفاً.. نفوساً بشرية
لأولئك المشاهدين في الطرقات؟.

ولماذا لم تحضري شيئاً من الكمامات أو الفلاتر من أمريكا؟.

انتصبت.. أشارت بيدها صوب وجه المعفر..

تباً لك.. أنا لا أغرق في ذاتيتي.. ألا تفهم؟.

قطع نقاشهما الحاد طفل صغير فتح باب الصيدلية.. كان يمسك
بيده وصفة علاجية.. كادت تصرخ.. ليتكم تموتون.. إن هذا الجيل
الخانع الذليل الذي هزه الفقر والجوع والذل لا يمكن أن ينتصب
يوماً.. لا يمكن أن يتشكل حساً إنسانياً رقيقاً.. لماذا لا تموتون جميعاً،
ويموت معكم هذا الأسى؟.. ألا تشعرون أنكم عبء كبير على المدنيين
الراقية؟.. على الحياة الجميلة؟.. على الدنى التي تزخر بأطياف
حلوة؟.. ربي.. ما الذي أتى بي إلى هنا؟.. كيف يا أباي، توصلك قدمك
النظيفتان إلى هنا؟.. وكيف تستطيع استنشاق هذا الهواء الملوث؟..



كم أرثي لحالك يا أمي!.. ما أشد صبرك وصمتك!.. وأنت يا أحمد
الزهراوي.. لم أعد أحتمل غيابك أكثر! لبيتك تعيش هنا للحظة حتى
ترحم وجمي.. تبا.. تبا..

صرخت في الصغير الذي وقف حائراً تجاه ردة فعل غير متوقعة..
بدأت تهذي:

أنا المعلقة بين فضاء العمر الساحر وعالمكم القذر.. أنا التي شد
عنقها وتعلقت حياتها بأجوائكم الملوثة..

أنا.. قاطعها..

بأي حق تتجرئين؟!

وبأي حق تجرؤون على نهب عمري؟!

أنت مسكينة يا مريم.

أنا!.. ضحكت.. أنتم المساكين.. إنني على أي حال أحلم بأمل
قريب.. أما أنتم، فماذا يعيش في رؤوسكم غير الأوهام والهوان؟!

يسكننا الوطن.

آه.. لا تتحدث عن الوطن.. أنت لا تعرف الانكسار الذي دوى
بداخلي إذا تنفصل جذوري عن الوطن.. وطني الجميل.. وطني الحلم
الذي يرسم الوجود طيفاً بديعاً يداعب كل حس جميل بداخلي.. أعطيك
عمري، إذ تهبني لحظة واحدة أتملئ فيها وجه أمريكا الرائع.. الوطن..
ماذا تعرفون من الوطن؟!

جلست ساكنة... التمعت عيناها اللتان اغرورقتا بالدموع، وانطلقت شريدة الهواجس والأفكار.. قال بهدوء بالغ:

كلانا يبحث عن وطن.. ألا يحق لي؟

لم أضيع وطني.. عاركم أنكم فعلتم!.

ونحن لم نضيع!.

وإذا، كيف تفسر لي كل ما يدور حولي؟.. كيف ترضي المثات.. الآلاف أن تبعد عن ظل الوطن؟.. أنا أستطيع أن أفسر كيف خرجت من أمريكا.. وأنتم؟!.

ونحن!..

قالها بتصميم منكسر.. خطا خطوات مسكونة بأنة عتيقة نحو وعاء بلاستيكي صغير حشي بتراب أحمر، وقد امتدت فيه نبتة خضراء متسلقة.. كانت ترقب خطواته برغبة عميقة في الصراخ.. في صفعه حتى يذوي وتذوي في عالمها البعيد.. مد يده الجريحة نحو الأوراق.. شدها بعنف.. تناثرت ذرات التراب في كل مكان.. غشيت عينيها السمرابين.. طلعت تتناثر وتتناثر حتى كادت تخنقها.. تقتلها.. تأتي على أنفاسها الحائرة الزاهقة.. أستغيثك أيها الموت، أن تقبل لتصهرني في بؤسك.. خذني بدل الموت الرابض في أعماقي ينهشني كل يوم.. كل لحظة.. رمى بالنبات على الأرض.. كانت الجذور ملتصقة بذرات التراب:

هكذا.. هكذا اقتلعنا.. وهكذا رمينا في هذا المكان!.. الفرق

الوحيد بيننا وبين هذه النبتة هو الجذور!.

صمتت.. لم تحر جواباً.. لم تتفوه بكلمة.

جدورنا لن تزال هناك.. ممتدة في رحم فلسطين.. في حرم الوطن الذي لم تعترفي بحقنا في التوجع من أجله.. لن يستطيع أحد أن يفصلنا عن المدينة.. عن الوطن!.

انتبهت إلى عينيه الغائرتين.. انتبهت كيف تلاشت ابتسامته الساخرة لتبقي وجهاً متيبساً ظمآن حائراً.. وحدنا الجرح.. وحدنا الحنين إلى وطن ضائع شريد لا يأتي.. عذراً.. ولكن لبيتك تعلم نرف الجرح داخلي!.. إنني أقف على عتبات الرmq الأخير.. هل تشعر بذلك حقاً؟.. هل يسكنك هاجس الوطن؟.. هاجس الذكرى والحلم؟.. هاجس العودة والالتصاق بالدفء الحميم الذي يرسمه الشيء المقدس الذي يدعى: وطن؟.

كانت يده الجريحة تلتصق بجنبه البارد.. بدا هزياً ضعيفاً لا يقوى على الوقوف.. كان سمته يحمل عنوان الانكسار والحزن.. ظل صامتاً.. أدار ظهره إليها، بينما حدقت عيناه في السماء التي تلوح أمامه شاهدة على حبه القديم.. خطواته البطيئة حكّت الكثير عن أمل لا يجيء.. وعن حلم يظل يتألق في السماء نجمة بعيدة لا تطولها يداه الكليلتان!.

خرج.. بقيت وحيدة في وحي كل الذي جرى.. ارتمت على الكرسي غارقة في سراب الكلمات.. وقعت عينها على اللوحتين.. لماذا خرجت؟.. إن شفاهك المتيبسة تنطق بحروف الأمل والامتداد الجميل في عي عمق الحنين الساكن هناك في غور الداخل.. لماذا خرجت؟..



لا تدري لماذا احتلت صورة الجدة كل مساحة الرؤية.. نادت: نعم..
يمكنك أن تسكبي من يقينك الفطري البارد على حر الأسى الذي
يحرقني..

لم تبال بالصيدلية.. لم تبال بشيء.. كانت خطواتها شغفة ظمأى..
تسير بثقة وكأنها تدرك المورد الصافي الذي تستسقيه سلاماً وأمناً
للخوف الحائر الكامن في أوصالها!.





كانت تجلس في مكانها المعهود.. ثوبها الفلسطيني الأصيل لا يفارق جسده الهزيل.. إنها تتوحد فيه، فيتشكلان منظومة رائعة من الالتحام الحقيقي والانصهار الفطري، فتتبدى ملامحها حقلاً من سنابل قمح يستقبل الشمس والنور، فيلتمع انتصاباً وإرادة أصيلة بالحياة..

ازداد ظهرها انحناء، وهي تكب على ضمة الزعتر القابعة أمامها.. سمعتها مريم أكثر من مرة تردد أن المصيبة أحنته.. كان قوياً مثل عمود الدار يا مريم.. كان يعرف الفرح في البيارات ومواسم الزيتون.. ما كان هناك ظهر يحزن ويبعد.. كانت مواسمنا أعراساً، فصارت أعراسنا أحزاناً.. من يوم النكسة ما رأينا لحظة حلوة..

باقات الزعتر ورسلات القش والإبرة نفس فلسطيني في البيت يرد الذاكرة إلى الأرض.. إلى عقب الامتداد الأصيل المتجذر في عمق الوطن.. بين مدة وأخرى كان لا بد من ممارسة لهذه الطقوس بحسب المتيسر علّ الروح تنتشي، تحلق في أفق الذكرى التي لا تغيب..

أهلاً يا جدة.. خير إن شاء الله، عسى ما فيه شراً!

نظرت إليها بعينين حائرتين.. ماذا أقول يا جدة؟.. جئت أتمسح بعتبة ظهرك.. أتشرب روح كلماتك؛ عسى أن يهدأ هذا المارد الصاخب داخلي، يذبني في قمقمه وهو يقرع روعي التي تتهاوى كل يوم بأسئلة تلهبني عن حكاية الوطن والحقيقة.

كل خير.. شعرت بالتعب، فقلت: أرتاح هنا قليلاً.

تهللت أساريها.. لأول مرة تسمع هذه الصغيرة الثائرة تتحدث عن الراحة والسكينة في ظل المخيم الذي أوشك على تدمير كل حي فيها!

والله أنت الخير والبركة يا مريم.. كنت أعرف أن هذا سيحصل.

ردت بهدوء:

هل أساعدك يا جدة؟

أنت تعبانة يا مريم رُوحي.. ارتاحي!

أين الراحة يا جدة.. كل العوالم أضحت ضبابية تغشى دواخلي، فتولد حيرة قاتلة تتركني صريعة البحث والانتظار.. إيه يا مريم، كم أشعر بالتعب؟

لا يا جدة.. سوف أساعدك.

اقتربت.. لأول مرة تجلس بجانبها.. كانت تسترق النظر إلى التجاعيد التي امتدت على رقعة وجهها العجوز، فكسته بعداً يفرق في



عالم غامض سحيق.. أترأه الوطن؟.. أتراها الغربية التي انكسرت على صخرتها العاتية مسارب الزمان الآمن المنساب في سرداب الحياة أو آفاقها المتسعة؟!.. لست أدري يا جدة!.. إن ملامحي أشد بؤساً منك.. مدي يدك.. تلمسي وجهي.. هل تتحسسين الظلمة الغارقة فيه؟.. هل تدركين الضياع الممتد حتى ليأتي تياره على كل ظن أبله بأننا نعرف ذواتنا.. ندرك أسرار الوجود المرتحل عنا.. حتى متى يا جدة، هذا السوط العنيد يلهب ظهري الذي تقوس حتى تعفر المحيا بتراب المكان الغريب.. حتى متى؟!..

جدة.. قالت بصوت خفيض..

سكتت.. كانت تردد كعادتها لحن أغنية تتلاحق كلماتها على شفاهها أصالة ذات سحر خاص.. ما أجمل ما ترديدن! نعم، يا مريم.. نعم يا بنتي.. والله هذا الوجه الحلوتحبه فلسطين.. ما غيرت أمريكا منه شيئاً.. ردت بهدوء..

جدة.. كيف جئتم إلى هنا؟.

شدت على أوراق الزعتر.. قالت، وكأنها تتحجب..

(حكاية أسي مر ما ينساه أحد.. والله وممرت السنون ونحن بعاد يا دار!).

قولي يا جدة.. قولي.. لماذا بعدتم عن الدار؟.

لا تغلطي يا مريم.. نحن ما بعدنا عن الدار.. نحن تشردنا من

ديارنا وأحواش الديار.. واللّه يا فلسطين، ما هنت في عيوننا.. واللّه
يا قدس، ما نسينا، وما ارتحنا من بعد الصلاة في حرمك..

انذرفت دموعها تحكي الأسى الذي يسطرع في الداخل.. كثيراً ما
كانت تبكي.. تنن.. لقيمة النسيان حيز كبير في أذهان الآخرين، لكنها
لا تستطيع أن تنسى أو تتناسى.. فللوطن حضوره في هذه الذاكرة التي
تعتصر وجعاً.. وللألم امتداده الذي على أفقها، فيصبغه بالسواد.

اليهود يا مريم، كان لهم ظهر يساندهم.. لما جاؤوا إلى بلادنا
ما كانوا شيئاً.. كانوا مثل قشر القمح عندما يتغربل ويترك.. صاروا
شجرة شوك التف على كل فلسطين.. قلعوا شجر الزيتون والبرتقال
وصرنا ضائعين.. واللّه يا مريم، البيارات كانت ترد الروح.. كنا نقعد
في ظلها، وما نفكر في شيء من الدنيا.. صارت الدنيا ما تفكر فينا.

وكيف يا جدة؟

الإنجليز يا مريم.. ما طلعوا حتى تأكدوا من أن اليهود قادرين
على سرقة كل شيء.. الوطن.. الناس.. الشجر.. الهوا.. لعنة اللّه على
اليهود وعلى الإنجليز.

وأنتم يا جدة.. هل سكتتم؟

واللّه يا مريم، ما سكتنا.. اللّه يشهد وعباده يشهدون.. لكن ماذا
نعمل واليهود جردونا من كل سلاح، والإنجليز زدوهم بكل سلاح..
عدل يا مريم، ما صار؟.. واللّه ما هو عدل.. البيوت تهدمت، والناس
قتلت، والأراضي صودرت.. وبرغم كل شيء ما سكتنا.. حاربنا بالعصي

وبالبواريذ التي ظلت بين أيدينا .. الله يرحمك يا قسام، ويرحم ثورتك ..
الله يرحمك يا قسام!!

لم تتمالك نفسها .. كانت صورة الشهداء قافلة طاهرة تمر أمامها
عابرة زمن التخاذل والصمت .. وكانت صورة الوطن تلوح ضمة دحنون
مشرب شفق تتعالى من بين الأهات الذليلة التي يتردد صداها في
أرجاء المخيم .. مخيم يا وطن .. نموت والشمس ما تطل علينا في أرض
الغربة .. والوطن يعيش فيه الغريب!.

كان يوماً أسود حين طردونا .. كنت في البيت أقرأ القرآن .. والله
ما كنت خائفة إلا أني أبعد عن القدس .. القدس غالية يا مريم .. فيها
نفس الأنبياء .. القدس بيتنا وبيت الذي ماله بيت .. ما شعرنا إلا اليهود
يطوقون المنطقة .. أصواتهم اللئيمة تأمرنا بالخروج .. من غير شيء ..
نخرج ونترك بيوتنا وأحواش البيوت .. نترك أرضنا وذكرياتنا .. نترك
كل شيء .. صرخت بأعلى صوتي: أموت، وما أطلع من الدار .. جاء
واحد منهم يحمل بارودة .. ضربني فيها على كتفي، وقال: «لازم تطلع
خبيبي .. كعود هون ما فيه»!! الله يلعنك يا غريب .. «قعود لك في الدار
ما فيه» .. أمسكت بعمود الدار وصرخت: ما أعيش إلا في هذي الدار ..
الدار دارنا والوطن وطننا .. اطلعوا أنتم منها .. اطلعوا .. اطلعوا ..

حملني بيده النجسة ورماني في (التركتور) .. كنت سأرمي نفسي
في الأرض، لكن اليهود طوقوا كل مكان، وكان أمرهم (للتراكتورات) أن
تمشي .. حملوا الناس فوق بعضهم .. والله يا مريم، كنا نشفق على الغنم
ماذا نعمل في هذي المصيبة .. القرية كلها ترحلت .. (التركتورات)

تمشي.. الناس تبكي وتصرخ، وأنا أتفرج في المآذن وشجر الزيتون..
كل خطوة يمشي فيها (التراكتور) نبعث عن الوطن.. واللّٰه يا مريم، إن
الموت أرحم.. منذ ذلك اليوم، ونحن نموت في اليوم مليون مرة.

تجسدت أمريكا بوجهها الجميل وطناً يرتحل عنها.. إيه يا جدة.. ما
أقصى الانفصام عن الوطن!.. عندما تتسلخ الذات عن الذات، وتهاجر
الغربة إلى الداخل.. يضحي الوجود بلا قيمة.. ما قيمة الإنسان بلا مبدأ
يشده إلى رسالة ما؟.. إلى عمق ما؟.. ما قيمة الإنسان بلا وطن؟..

وصلنا للبحر.. وهناك رمونا فيه.. يومها رأينا أرض الغربة.. واللّٰه
لوفرشوها لنا ذهباً ما كانت حلوة في عيوننا.. الغربة مرة.. مرة يا
مريم!!.

عبراتها السخينة المنحدرة على تقاسيم وجهها المتغضن الداوي
وحدها كانت الحكاية.. حكاية وطن مفدور.. أمة تضافرت من حولها
أنياب الذئاب تنهشها في ظلمة ليل فاجع لتقبع في الهامش انكساراً
وغربة وأسى.. يا لنوارسك الشريفة يا وطن!.. كم شقيت بالموج
يرميها على شواطئ النسيان!.

ونصبوا الخيام.. وصار اسمنا لاجئين ونازحين.. اسم أسود بلون
الخيمة والمؤامرة.. قال: الهيئة أمرت برجعتنا.. وكيف يا مريم؟..
كيف والأرض ما تسعنا نحن الاثني؟..

مريم.. ها.. إن الحقيقة تتبدى لك.. تنكشف عن مأساة شعب
غريب غريق.. القدس هاجسه.. والوطن يسكن أوصاله الباردة
المتأججة بروح الرغبة لعودة لا تتأتى!.



وغريقة أنا كذلك.. ووطني على مرمى إرادة مستحيلة..

تفرقين في ذاتيتك.

إنه ليس اتهاماً.. من منا لا يأبه لذاته؟.. كيف سأعيش همّ شعب،
والموت يذبحني أنا؟!.. يحز سكينه الماضية في شرايين الحياة في
جسدي الضعيف!..

تهربين من قناعاتك التي كنت تستعرضين.. كم كنت تجيدين
تهميش الشخص لترفعي شأن فكرة!.

الفكرة!.. الفكر!..

مالك تصخين؟.. نعم.. الفكرة.. فكرة الإنسان الذي ينبغي أن
يعيش إنسانيته.

حسناً.. فلماذا تتواطئين على إخراجي من حيز الإنسان؟..

ولماذا تتخفين خلف قناع الإنسانية المزعومة، وأنت لا ترين إلا
وجهك المأزوم؟.

إلام ترمين؟.

إن لم تكوني بقدر الشعارات التي ترفعين، فخير لك أن تمزقيها..
إن حياة الشعارات الممتدة تكمن في إخراجها إلى الوجود.. عندما
ترى النور.. فحسب، تعيش لصاحبها.

آمنت بالإنسان و...

أمنت بذاتك.. ألا ترين؟.. تدركين الحقيقة البائسة، ثم تتهقرين إلى الوراء.. ما زلت تبحثين في الداخل عن مملكة أحلامك.. وعن طيف أحمد الزهراوي.. وحسب!..

إن لي أن أرقب ذاتي.. أن أمسح الوجع عن قلبي الذي يكده التعب.

إذا أنت تريدين أن تحيي اللحظة.. فقط.. فأين الامتداد الذي كنت مسكونة به؟.. أم أنه امتداد المترفين على أرض الحياة النضرة الهنية؟.

لم أبصر غيره.

من قبل.. ولكنك الآن تبصرين آلاف الوجوه الشائهة التي تبحث عن أمان.. عن حياة بدل الموت الذي تشقه في كل حين..

لن أستطيع.. إن الأسى أكبر من يدي الصغيرتين!.

عندما ترفعين الراية لن تظلا صغيرتين.. وستجدين آلاف الأكف التي تحملها معك.. لن تكوني بمفردك ذات لحظة.

فلماذا لم يرفع أحدهم راية؟.

الناظر من بعيد لن يدرك التفاصيل.. التفاصيل وحدها هي التي تشكل الحقيقة الجليلة.

الحقيقة..

لم تشعري بثقل البحث عنها ذات مرة!.. لماذا تتضخم الأشياء حواليك الآن؟.

الأشياء تختلف..

ولكن الحقيقة لا تختلف.. الإنسان جوهر.. إن مجرد ثياب
البرجوازي لا ترفعه إلى مرتبة الإنسان.. كما أن البؤس المتربع في
كل شيء لا يرمي به هناك إلى هامش الإنسانية التي تكادين لا تقرين
بأنفاسها الحية..

لا أدري..

عليك فقط أن تتخذي موقفاً..

لا أدري.. لا أدري..

حدقت في عينيها العجوزتين اللتين لم تكفا عن البكاء.. لم تستطع
أن تفعل شيئاً.. وقضت الكلمات في حلقها سكوناً حائراً.. أما العزاء فقد
ارتحل بعيداً إلى حيث لا تستطيعه يداها الضعيفتان.. حيث المئذنة
تصدح بلا إله إلا الله.. وحيث أشجار الزيتون ترمي ظللاً حائياً يبحث
عن أولئك الذين تشرّدوا في مناحي الزمن، ولما يرتد خطوهم الحزين
إليه!.





افتعلت المفجأة وردة فعل مغرقة في عدم الرضا..

أنت؟

مرحباً.

ما الذي أتى بك؟

الجرح.. ينبغي أن تكشفني عليه.

هذا شأن الطبيب.

ابتسم.

ولكنك تكفلت بعلاجه ابتداء.. كيف أسلم يدي لطبيب آخر؟

كان ما يزال واقفاً لدى الباب.. أو مأت إليه أن يدخل.. استطاعت
لبرهة أن تحتفظ بردة فعل صارمة، أسلم يده إزاءها بهدوء وطواعية..
كشفت عن الجرح الذي بدا واضحاً فعل الطبيب فيه.. عقمته، ثم
قالت، وهي تغطيه:



كنت حادة في المرة الماضية.

قال، وهو يبتسم:

لا شك في ذلك..

هل تنتظر اعتذاراً؟

لا يهم.. أنتظر إقراراً فحسب..

قالت باقتضاب:

فيم؟

في حقي بالتوجع من أجل وطني.

إن كنت تؤمن بذلك، فلماذا تنتظره مني؟

يحتاج المرء إلى من يقف بجواره عندما يكون مؤمناً بقضية

مصرية.. ألا تشعرين بذلك؟

بين بين..

وكيف؟

قالت بهدوء وعقلانية:

أحب بالطبع أن يقف أحد بجواري يؤازرني فيما أؤمن به.. ولكن إن

لم أجد مضيت وحيدة.

هل تسمحين لي بسؤال؟

تفضل..

كلنا يعرف قدومك من أمريكا.. ولكن هل يمكن أن أعرف السبب؟.

وهل يهمك ذلك؟.

نعم.. يهمني.

لماذا؟.

كانت كلماتك موجعة.. أردت حقاً أن أتبين موقعها منك.

اضطربت.. نهضت من مكانها.. قالت:

عن أي كلمات تتحدث؟.

قال بصوت مرتفع:

أنا لم أضيع وطني.. عاركم أنكم فعلتم.

حدقت في عينيه..

حقاً لم أضيع وطني.. وما زلت حتى اللحظة أتملى وجهه الحميم.

ولماذا إذا قدمت إلى هذا المكان البائس؟.

إنها الأقدار يا.. استدركت.. حقاً.. بماذا أناديك؟.

ياسر.. اسمي ياسر.

لم أشعر بالعجز شعوري إزاء الأقدار.. إنها تتصل بالماء؛ لذا تحيل

الإنسان مخلوقاً ضعيفاً.. ضعيفاً جداً.



ذات الأقدار التي غرست قدميك هنا.. أوجدتنا كذلك.

حسناً سيدي.. أنا أقدر ذلك فعلاً.

قاطعها متعجلاً..

تقدرين؟!.. ردت بهدوء..

عندما يحدق المرء في التفاصيل يدرك الحقيقة جلية.

فقد أبصرت إذا تفاصيل الحكاية؟.

نعم.. وعرفت مأساتكم الحقيقية.. باستهجان:

عدنا ثانية للإدانة والمغالطة؟.

ليست بإدانة.. إنها الحقيقة.. لماذا تحبوننا عندما تكون لجانبكم
وتخدم مصالحكم؟.. لماذا تتكرونها عندما تشير بإصبع الاتهام
لحماقتكم التي لا يمكن أن تغتبرا!.

رد بعنف:

إن حماقة التي ارتكبتها هي عودتي للحديث معك.. كان ينبغي
ألا نلتقي.

هكذا أنتم.. عندما تقضون مواجهين ذواتكم تبتدؤون بالفرار
والانهزام.. لن تستطيعوا المواجهة أبداً، ولذا ستموتون كأبسط ما
تموت الحشرات.

انتهي لما تقولين.. لا يحق لك أن تسبني نضالنا!.

ضحكت بصوت مرتفع حملته كل ما اعتمل داخلها من شعور قاتل بالرفض.. الرفض لواقعها البائس الذي يقترب من النهايات الأليمة، ولواقع هذا الشعب العاجز المسكين الذي يمضي بلا حول ولا قوة، وقد أتم فصول اللوحة من ملامحه البائسة يأسًا وانحدارًا..

نضالكم؟.. حقا.. فأنتم تناضلون في خنوعكم واستسلامكم.. هل تستطيع أن تتكرر ذلك؟.. كم أنتم أشقياء؟!

دائمًا ترسمين الواقع بالطريقة التي تحلو لك، ثم تحملينا جميعًا لنهز رؤوسنا بالطريقة التي تريدين كذلك!.

ياسر.. إن كانت الأقدار حتمت عليكم اللجوء إلى هذا المكان البائس.. فهل حتمت عليكم كذلك معاشته؟.

ومن قال ذلك؟.

أنتم.. تمنيت حقًا لو أدرك وجهًا آخر.. صوتًا آخر.. حركة أخرى.. إن كل شيء يمشي برتابة مطلقة قاتلة ترسم حتى الحياة موتًا.. كلكم تعرفون السكون.. لا شيء غير السكون!.. هل تستطيع أن تنهض بوجهي هذه المرة؟.

إن مجرد يدي المقطوعة لتصفع أوهامك إلى الأبد.

ارتدت للوراء.. شحبت وجهها.. تضائل تمامًا كمن باع قدسًا.. ووطنًا.. تراها واهمة حتى النهايات!.. ترى أكانت عينها الزائغتان الفجيعتان تسقطان ما بداخلها من عجز وإرادة مسلوبة على كل شيء مما ارتمى حولها.. لا.. فالواقع هو الذي يفرض هذه الرؤى.. إن العجز

سمت كل شيء.. الكلمة.. الموقف.. حتى الحياة التي لا تعباً بالفكرة.. الموت رابض في الأشياء.. والوجود كله يسير في مسرب اللاوجود والعدم.. لم أبصر كما أريد.. هم الذين رسموا إطار الموت يحيط بهم.. بأنفاسهم اللاهثة للأشياء.. للسراب.. للوهم.. أيمن أن تتغير السنن، فتقبع وراء كل هذا الانهزام روح الانتصار؟!.. إلهي، أيمن هذا؟

عندما نهضت يدي في وجوههم حزوها بسكاكينهم الصدئة كما تحز عروق شجرة يابسة خربة وتلقى في الطرقات المعفرة المنسية.. جلها الصمت.. انتصب السكون هذه المرة عملاقاً داخلها.. كل هذا البؤس والحرمان يتشكل الآن وجهاً متجهماً يلفظها هي بلا إنسانيتها.. بشعاراتها المزعومة.. بيرجوازيته العفنة التي أبصرت عبرها عيونهم الآملة.. أحلامهم الكسيرة مجرد هواجس لا تستحق أن يلتفت إليها.. كم من المرات زعمتهم حشرات كان الأجدر بها أن تندثر.. تنفذ إلى لباب الأرض وتستقر هناك.. مع الذين عفا عليهم الزمن ومضى.. ها.. إن الصورة كلها تتقلب.. لماذا يا أبي، كنت تجمل في كلماتك، ولا تلقي في روعي الحقيقة كاملة.. أنسى يا أبي، إذا كنت تردد: ذات يوم كانت لهم وجوه نضرة.. أنى لي أن أدرك تلك الملامح والقسمات؟!.. ليتك يا سيدي الزهراوي، أنقذتني من هذا الأسى الذي وقعت فيه مرتين.. مرة حين أدركته بوجهه الشائه الشريد.. ومرة حين أدركت وجهي أنا شائهاً شريداً وهو يتعالى على إنسانية شعب برمته تكالبت عليه الدنى، فرمته هنا بلا عنوان ولا هوية ولا وطن!!..

عندما كنت في فلسطين.. كنت أرسم البيارات.. ضحكات الأطفال.. وعلى الرغم من وجود الاحتلال إلا أننا كنا ننعيم بظل الوطن.. الأرض.. كنا نرتمي كلنا قلة على صدرها الذييح نعدّها بأن تظل لنا.. ريشتي كانت لفلسطين.. للقدس.. للبحر الذي يتعالى كوجه على أحلى المدن.. ولما لفتّ الدنيا ودارت وصار الوطن غريباً.. لم تعرف ريشتي السكون.. السكون!.. هذا الشيطان الذي لعنتنا من أجله!.. فظلت أرفض غير الوطن.. وغير قدس الوطن.. غير ترب الوطن.. وشجر الوطن.. وهواء الوطن.. أرواحنا كلها معلقة بالوطن.

اغرورقت عيناه بالدموع، تماهت صورته بصورة الجدة.. أبصرتها في وجهه المقطوع من حزن المخيم.. كان صوتها عالياً وهي تتحب: كان قوياً مثل عمود الدار يا جدة.. كان يعرف الفرح في البيارات ومواسم الزيتون.. كانت مواسمنا أعراساً فصارت أعراسنا أحزاناً.. من يوم النكسة ما رأينا لحظة حلوة!.. كيف لم تسمع هذه الآهات الذبيحة؟.. كيف لم تبصر الوجع الحقيقي الكامن في كل شيء؟.. يا لهذه الملامح المجبولة بأنات الحزن! كم كانت آهاتك صدى باهتاً في عوالم من يرتحلون إلى ذواتهم.. ذواتهم فحسب!..

وجاء يوم الأرض.. رسمت فلسطين، وهي تنادي، والقدس تبكي المسلمين.. رسمت وجوه كل الذين يهمهم أن نتجذر في أرض الغربية؛ لتكون فلسطين لليهود.. كنت أعرف أن الرسم في هذا الزمن ليس من حقي.. وأن العقاب عاجلاً أو آجلاً.. ولكنني لم أستطع الصمت.. وحدها الألوان كانت تتساب وتنفرز؛ لتخط كل ما بداخلي من وجع.. الوطن غالٍ يا مريم.. والغربة مرة!.



ظل الصمت يعلو محياها المنكسر.. لأول مرة لا تستطيع أن ترفع
عينها في عينيه.. وكيف؟.. كيف ونظراتها الآثمة قد نالت من كل شيء
جميل شريف في هذا المكان الشريد؟..

في الليل تم كل شيء.. كانت طرفاتهم على الباب مجنونة جنون
الذي كان عندما تشردنا وتركنا الوطن وطناً للغريب.. تحاملت أمي
المسكينة على مرضها وضمتني لصدرها.. كان الخوف على حياتي
يطلق لسانها بالقرآن.. قرأت (يس).. مسحت على رأسي وصدري،
وهي تبكي بحرقة.. الذي كتبه ربنا يا أمي، لا بد أن يصير.. وكان
المكتوب صعباً.. نزعوني من بين يديها.. صرخت.. كلماتهم أسكتتها..
كانوا يشتمون الوطن والعمالة ونكران الجميل.. أمسكني واحد وقيدني
قدام أمي وأختي الصغيرة.. والثاني مسك السكين وبدأ يحز يدي..
كان يصرخ ويقول: حتى لا تفكر في يوم أن ترسم أو تتكلم.. انفجر
النزيف.. وانفجرت روح أمي المسكينة زاهقة على بركة الدم.. وارتمت
أختي الصغيرة على صدري.. كانت تحاول أن تقول شيئاً.. أن تفعل
شيئاً، ولكن بلا فائدة.. أدركت أنها فقدت النطق في تلك اللحظة..
كان التشنج الذي أصابها قد شلها حتى الممات.. أما حياتي فقد كانت
أعجوبة من أعاجيب الزمن الغريب الذي نحياه..

أضحى الصمت الذي ظلت تندد به منذ قدومها المخيم حرفتها
التي لا تدرك سواها.. ارتدت كلماتها عاراً يصم جبينها الفلسطيني
الغريب لتلجم لسانها إلى الأبد.

في كل بيت حكاية.. قصة.. الذي لم يمض على أرض الوطن مات
غريباً.. والذي لم يعيش فقيراً عاش ذليلاً بلقمته التي يتلقطها هناك في

المهجر.. والذي لم يعيش حرّاً، فغاب هناك وراء الشمس التي رحلت ولم تعد، عاش هنا خائفاً حزيناً يسكنه الأمل بعودة حبيب لا يجيء والخوف من حرمان آخر.. كلنا أشلاء ومن تشرّد مرة، فسيظل العمر مشرّداً..

يا لوجهك.. وإيمانك يا جدة!.. كنت دوماً تردددين: (والله يا وطن.. راجعون)!.. يقينك الفطري يهزني.. يجعلني صغيرة أمام مدرستك الكبيرة.. انتماؤك الحر النبيل.. خذيني يا جدة، لعوالمك التي تتعالى حتى تضحي الأفق الذي يتشح بالغيب المؤمن المسلم بكل تلك القوة القاهرة التي تتمسكين بها.. كم أنا ضئيلة بجوارك!.. بجوار جوانحك العارفة بأسرار الوجود، تسجّينها عبر الآيات التي لا تنفكين ترددديها، ثم ترطبين الوجود بتهلك الدفيء الحميم: لا إله إلا الله..

ها إن الحقيقة تتبدى كاملة.. ترسم خطوطها جلية كما لا تشكل خطوط الشمس.. كانوا يوماً وادعين يستقبلون الحياة بالنور الذي يستضيئونه من قناديل أقداسهم.. من طهر أرضهم التي عشقتهم وعشقتها حد الانصهار.. قلوبهم الندية الشفيفة أحبت الوجود أماناً وسلاماً يضفي مسحة ساكنة خاشعة على كل شيء في هذا الكون الممتد.. كانت قسماتهم نضرة بهية تضحك كالبيارات التي تنتصب حكاية وطن.. وكأشجار الزيتون المزروعة هناك في عمق الأرض التي تشكلت قسماتها وطناً.. أضحى شريداً طريد المؤامرة العفنة تحكي لياليه الطويلة أوجاع شعب لا تنتهي.. وآهات أمة فجيسة تقعات الحرمان في كل آن.. أمة انتصبت مارداً، وهي لا تملك من عدة الحرب شيئاً.. فاستقبلت الأسى بصدرها الذي اعتمره الإيمان بتلك القوة القاهرة المسيطرة.. لتجيء ترنيمات الآيات الكريّمات سرّاً يحيل آلامها إيماناً

عميقاً واعتقاداً جازماً بأن الجولة الأخيرة في هذا المعترك المرير سترتدي حلة وجودهم وأسمائهم.

نهض.. لم ينظر في عينيها اللتين أدمنتا الإدانة.. لم يبصر شيئاً هناك في الداخل.. كان يحرق في نرف جرحه الذي لا يلتئم.. في الوجع الذي يظل يأتي على كل حس جميل بالحياة.. في رسمه أنه لا تستكين.. حمل خطوه المتثاقل مسؤولة إطلاقه هناك.. حيث الشوارع المثقلة بالهموم ترتضيه مترنحاً في جنباتها.. خرج مخلفاً إياها وحيدة.. نهب إرادة ترى النور، ولكنها رهينة الجهل والخطو.. ماذا أفعل؟.. احتضنت رأسها الصغير بيديها العازمتين.. أخذت تبكي.. لاح أمامها أحمد الزهراوي بيتسم في وجهها الصريع.. كان يعدها بإصرار بانغ أن تنتهي آلامها وأحزانها في أيام قريبة قليلة مقبلة.. توارى وجهه خلف أشجار الزيتون واللوز والبرتقال، حيث الأرض التي تحتل الأفق طهراً وإيماناً خاشعاً بالحق العتيق.. امتزجت كلماته الأخيرة بالصوت المقدس المنبعث من هناك.. من روح المآذن التي تمتد جذورها لتعتنق الأرض والأقداس: الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.. أصغت جيداً.. كان صدى الهمس يتردد في أعماقها بعيدة.. ظل يتضح ويتضح حتى تكشف عن ندائها المشفق الحميم: تعالي يا جدة.. رفعت عينيها في السماء.. كانتا تتلألأان وضاءة وحيرة..

نعم، يا جدة.. يجب أن تأخذيني لعوالمك الساحرة؛ لأشعر بالدفء كما لم أشعر به ذات مرة.

الأشياء الآن تأخذ بعداً آخر.. الشوارع الضيقة كانت تقسح عن أمل عابق بإرادة الحياة والعودة.. تلك الأجساد الهزيلة النحيلة صارت

تتفتق عن أسى حقيقي ساكن في أعماقها يستدعي الألم وإرادة ما
للتغيير لا للإدانة والتنديد بخنوع مزعوم أو ذل مهين.. أما الأفق فقد
كان يضحك لتلك القسمات النضرة الحية التي تختفي وراءه، وهي
لا تزال تعلن التهليل شعارها الوحيد في اشترئباب حميم مع المآذن
الغائبة والحرم الفقيد..

فتحت الباب الخشبي الهزيل.. كان صوت الجدة دافئاً رقيقاً تعتريه
مسحة غريبة دفيئة.. أتراها يا جدة، أنفاس تلك القداسات الرفيعة
التي تشربت روحك الأصيلة.. كانت تغني بصوتها المتهدج الحنون:

فِلِسْطِينُ دَارِي وَدَرْبُ انْتِصَارِي
تَظَلُّ بِلَادِي هُوَى فِي فُؤَادِي
وَلِحْنًا أَبْيَا عَلَى شَفَاتِيَا

كان صوت الصغيرين يتناغم بانسجام جميل مع صوت الجدة التي
كانت قد أعملت أناملها في ثوب فلسطيني بديع يعبق برائحة الأرض،
ويسمو سمو الحياة في وطن تعلوه الإرادة المؤمنة بالحق والعودة..

ما زال هاجس أمريكا يلح عليها بكل حيثيات روعته، ولكنها لا
تستطيع أن تخفي أن ثمة شيئاً غريباً لا تستطيع أن تتلمس أبعاده يلح
عليها كذلك.. شيء لا يقترب من جمال أمريكا وشوارعها الفسيحة،
حيث تترامى على أطرافها مدنيات راقية تعرف كيف تصنع الرفاهية
لكل الساعين لها.. للأكاديميين.. لللاهيين والعاثين.. للجادين
والدارسين.. شيء يخلق جواً ساحراً لم تعهده في أمريكا على جلال

روعتها وعظمة أسطورتها.. شيء يشدها من الداخل.. من الأعماق.. يحاكي فيها بعداً جديداً كل البعد عن جسدها.. عن عقلها الذي طالما أغرق في علوم الصيدلة والمختبرات والتحليل الطبية.. بعداً آخر لم تحيه هناك في بلد العجائب التي تسحر الأبواب.. لعله الروح.. لست أدري!!.. إن هذا الشعور ليختلف تماماً عن كل مظاهر السعادة التي كنت أحس بها.. لا أخفي أنه يضيء علي سعادة من نوع ما.. نوع خاص جداً.

انقذ في ذهنها خاطر سريع، وهي تستمع إلى الصغيرين يترنمان بإيقاع جميل بريء.. أسرعت إلى الجدة:

جدة.. أعيدي علي هذا اللحن الجميل.

ضحكت الجدة وغنت، وهي تربت على كفها الناعم الصغير.. كانت تهز رأسها طرباً وسروراً.. لعل مبعث ذلك اللحن الذي تشكل إيقاعه انتماء للوطن.. لعلها الكلمات التي تحمل إقراراً وتصميماً باقياً على روح المقاومة والانصهار في الأرض الطاهرة.. لعلها الفكرة التي أرادت عبرها أن تنزع عن كاهل هذه الأمة الكسيرة شيئاً من الوجد عندما يبصر هذا الجيل الناشئ الدرب واضحاً جلياً..

رفعت صوتها وهي تردد اللحن الذي حفظته بجوارحها الغضة.. وعلى الرغم من جمال صوتها السهلي إلا أن الجميع نظروا إليها باستغراب وانشدها.. بادرت:

أبي.. أليس صوتي جميلاً؟

اقرب منها.. ضمها إليه.. رد، وهو يمرر أصابعه الخشنة على رأسها الشاب قلقاً وجلاً..

بلى، يا مريم..

أدركت الحيرة في عينيه..

لا تخف يا أبي.. أنا في أشد لحظاتي هدوءاً وعقلانية..

تنفست أمها الصعداء.. آه يا أمي.. كم أرثي لصمتك الذي لا يزول!..

غنت.. كان صوتها دافئاً مطلقاً.. كانت تبصر كل شيء في عينيها اللتين انغلقتا على المآذن والبيارات.. على الأرض التي لم تزل تبحث عن الساجدين الملتصقين بتربها الطاهر.. على الوطن الشريد الغريب الذي بات على مرمى ارتحال أليم.. كانت تغني لكل ذلك.. وللشحر الذي يشدها من الأعماق للأعماق التي لم تعهد.. قالت سمية:

رحمة الله على عمك يا مريم.. كان دائماً يتمنى رؤيتك.. أي والله لما هاجر أبوك بكى الدم بدل الدموع.

أطرق الجميع مترحمين.. نظرت مريم بطرف عينيها الملتزمة إصراراً إلى الصغير الجالس في حجر الجدة.. أو مأت إليه بأن يقدم.. نظر في عينيها متوجساً.. كثيراً ما كانت تشير إليه بذات اليد أن يبتعد عن ناظريها.. يغيب؛ لئلا يقترب بجسده القميء منها.. لم يستجب.. قالت بصوت عالٍ:

تعال..

دفعته الجدة برفق.. شجعتة، قائلة:

مريم، يا عمر، تحبك.. مريم الخير والبركة.

انسحب من حجرها بهدوء.. اقترب ولامات الحيرة والتوجس تتضحان على رقعة وجهه الصغير.. ضمته بيديها الشفيفتين والجميع يرقب هذا التغير الذي بدا مفاجئاً بحيرة وقلق.. همست إليه ببضع كلمات.. انفلت من بين يديها سريعاً.. صرخ:

صحيح ما تقولين؟

هزت برأسها باسمه: نعم.

أشار بسرعة إلى أخيه الجالس يترقب هذه الأحداث الغريبة.. ضمه إليه بيد، بينما كانت الأخرى تلوح كمن يشرح شيئاً.. همس بذات الكلمات، ومن غير أن يعيها بأحد انطلقا خارج البيت.. فزعت سمية:

مريم.. خير إن شاء الله.. إلى أين ذهبا؟

لا تخافي يا سمية.. عمر وإبراهيم في عيوني.. المهمة سهلة وحلوة.. لا تخافي!.

نظرت في عيني الجدة.. لبتك يا جدي، كنت موجوداً لتقول شيئاً.. نقلت عينيها في عيني الأب المذهول والأم التي تلعفت بصمتها.. أشارت إليها الجدة أن تهدأ وتجلس..

أنت يا مريم، الخير والبركة.. لا إله إلا الله.

سعلت بقوة.. هذه المرة اخترق سعالها أعماق الصغيرة.. اعتصرت ألماً.. تمننت لو أنها تستطيع شيئاً.. لكن شعوراً بالاطمئنان والسكينة سرعان ما راودها والجدة تردد بيقين:

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

الجدة وحدها كانت تشعر بالاطمئنان، فانطلقت تعمل جوارحها في الثوب الذي استلقى بين يديها.. كانت سمية أشدهم قلقاً.. ترى ما الذي سيكون؟ وما الذي تخطط له هذه الفتاة ذات الوجه الأسمر الغريب.. مريم.. إن صار للأولاد شيء، فلن أرحم عينيك أبداً.. آه يا جدة، لو تتركيني أبحث عنهم..

جدة.. الأولاد تأخروا..

قلت لك يا سمية: لا تخافي.. الأولاد بخير.. «روحي اعلمي لنا كاسه شاي.. أحسن!».

هم الأب أن يقول شيئاً إلا أن الأم المتلذذة بصمتها وارتقابها بادرته قاطعة الألحان التي لم تتوقف:

تعالى يا مريم.

أسرعت إلى أمها.. كم أحبك يا أمي.. ليت أحمد الزهراوي يخبرنا بشيء؛ علك تتعقطين من قيد صمتك الحزين.. ارتمت في حجرها كطفلة.. همست:

مريم.. أين الأطفال؟

أسرعت تبدد أطيايف الخوف وهو اجس القلق من نفسها التي اعتملت حزناً أليماً:

لا تخا...



جاء الصوت صاخباً.. كانت الضجة كبيرة تبنى عن تحقق إرادتها
الوليدة:

مريم.. ناديتهم كلهم.

ابتسمت.. عاجلت أمها بقبلة.

حسناً يا إبراهيم.. أنا قادمة.

تنفس الجميع الصعداء.. وفي الحين الذي كانت الجدة تردد
بيقين وهدوء:

والله أنت الخير والبركة.. لا إله إلا الله..

كانت مريم قد غادرت المكان.. وفي الساحة الصغيرة الأمامية
توسطت الأطفال.. أمسكت باليمنى يد إبراهيم.. وباليسرى يد عمر..
وهمت بالمسير.. لكن صوتاً ردها:

مريم.

نظرت وراءها.. كان لا يتجاوز السادسة من عمره، ولكنه قد غض
بصره كشيخ عجوز استحيا من عمره الغريق بالخطيئة.. نظرت إليه
بحنو تنتظر ما سيقول.. تابع بذات اللهجة:

صدقيني لم أقصد. ردت بهدوء:

وما الذي لم تقصده؟

ال.. ال.. كرة.. أتذكرين؟

أي كرة؟

استدركت..

أه.. الكرة.

ارتد للوراء.. كان يخشى أن يبعد من هذا الاجتماع الطارئ المهم الذي ضم لفيماً من أعضاء المخيم الصغار.. كم أوجعتها هذه الردة!.. تَبَّاً للإبعاد.. تَبَّاً للغربة.. تَبَّاً للتشرد.. تَبَّاً للخوف.. أن الأوان لكي نشعر بالأمان ولو للحظة من عمر.. لم تجب.. تمايل رأسها الشاب طرباً، رفعت صوتها بأغنية الدرب، وهي تخطو خطواتها الأولى التي كانت أشد إيماناً بها:

فِلْسُطِينُ دَارِي وَدَرْبُ انْتِصَارِي
تَظَلُّ بِلَادِي هُوِي فِي فُؤَادِي
وَلِحْنَا أَبِيَا عَلَي شَمْتِيَا

انطلقوا يرددون بطرب، وهم يسيرون في الطرقات العتيقة.. كلمات الأغنية التي تتشكل حياتهم الشريفة وأمانهم الطفلة البريئة بحياة أمنة مستقرة كريمة.. كانت حناجرهم إذا ارتفع الصوت بهذا اللحن البديع تأتي أصواتهم المفطورة على الصدق والطبيعة بألحان تتوحد في إرادة واحدة وهم واحد.. الإرادة بالأمن الفقيد.. والههم المتكور على أكتافهم البريئة يطبع على جباههم الحلوة مأساة لا تنفك ترودهم تتكشف خطوطها عن اسم لاجئ.. ظلوا يرددون الأغنية في سعادة مطلقة غير مفهومة.. لم تستطع عقولهم الصغيرة أن تنظر لما اختلج خواطرهم



من حاجة دفينة عميقة للأمان.. للحب.. للاستقرار.. للوطن.. كانوا يتلمسون ذلك في عيونهم الحاملة فتفتت شفاههم عن سؤال لحة برتقال أو دفاء ينبثق من مدفأة الكاز.. لم يستطيعوا أن يحلوا أمانهم الحلوة البريئة ويصفوها بعنق كما يفعل الكبار.. لكن أصواتهم التي تتعالى وتتعالى تحكي الكثير.. تحكي عن الوطن الذي لك ينعموا به لحظة.. وهم يعيشون على ثرى الغربة التي لم تثر نفوسهم إلا شعورا بأسا بالشرد والانهمزام.. ظلت تسير بهم.. وكلما انتبه طفل من بعيد.. انضم إليهم مرددا الأغنية التي يحفظونها عن ظهر قلب من حيث انتهوا:

وَجُوهٌ غَرِيبَةٌ بِأَرْضِي السَّلْبِيَّةِ

تَبِيعُ ثَمَارِي وَتَحْتَلُّ دَارِي

كان المخيم قد شهد صوت أحرار مؤمنين من قبل.. ولكنه، وبعد أن غابت الشمس عن عيونهم الطاهرة العازمة لم يصخ السمع إلا للآهات المكتومة الأليمة.. أذنت الشمس بالمغيب.. انطلق الأطفال عائدين إلى بيوتهم مترنمين كما لو عادوا إلى الوطن.. أما هي فقد أثرت أن تبقى حيثما انتهوا.. اتكأت على شجر السنديان التي بسطت ظلها وأرقاً ظليلاً تتأمل منظر الشمس، وهي تغيب مرتحلة عن الأرض التي امتدت خواء من حس الإنسان.. هب نسيم بارد داعب شعرها الأسود المرتمي على جبينها الوضيء.. هزها بعمق، فانطلقت تبكي.. تبكي وحيدة على كل لحظة شريفة عاشتها وعاشها إنسان في هذا الكون الذي يمتد أساه بلا أمان، وهي تردد أغنية شرقت بكلماتها:

سأعرف دربي إلى بيت جدي..



هذه المرة كانت لهجته حادة صارمة.. كان يلقي الكلمات على مسامعها، فتأتي غريبة الجوهر غريبة النسج:

مريم.. الأمر ليس بالبساطة التي تتخيلين، عليك أن تلقي بأوهامك جانبًا.. أسابيع قليلة وينتهي بنا المقام هنا، قد تكون الأمور خيرًا مما نحن فيه.. أسابيع قليلة.. قليلة بحيث لن تتمكني خلالها من زرع النور هنا.. قالت بانفعال:

أبي.. أنا متأكدة من أنك غير جاد.

رد بعصبية:

لم أكن جادًا لحظة في حياتي كهذه اللحظة.. أنت تعرضيننا جميعًا للخطر.

عن أي خطر تتكلم؟

لن يسمح لك بممارسة ما تريدين.. عمك هذا يعد ثورة.

قالت بشيء من التصنع:

أبي.. أن يغني الأطفال لوطنهم ثورة!؟

أنت تعرفين أبعاد عمالك.

استدركت:

نعم.. أعرف.. قبل أن أعود لأمريكا أو فرنسا يجب أن أضيء
قنديلاً.. شمعة.. يجب أن أخرق ثقباً في هذا الجدار.. كي ينشق الناس
هواء الحرية.

رد بعصبية:

مريم، يجب أن تسكتي عن كل شيء.. كل شيء..

أبي.. أنت من تقول ذلك!.. تلطفت.. حاولت أن تستميله لجانبها:

أبي، كنت دوماً خير مرشد لي.. علمتني كيف ينبغي أن نحيا الأشياء
بحرية دون خوف.

صرخ بحدة مفاجئة:

الخوف خير لنا، إن النضال الشجاع كان طريقاً حتمياً للتشرد
والضياع.. والأمانة التي طالما رفعت لواءها هي التي رمت بنا هنا..
كفى غباء.. كفى أوهاماً.. استيقظي؛ حتى لا تقعي في حبال السراب..
أبي.. عندما كنت أقبع في الزاوية رافضة لكل شيء، كنت تفتح
عيني على القسامات الحلوة النضرة في كل شيء!.

نعم.. كنت أقصد أن تتعايشي مع الوضع إلى حين، لا أن تتحولي إلى ثائرة تريد أن تغير كل شيء!.

أبي.. أرجوك.. لا تتراجع.. صورتك الرائعة.. كلماتك الثائرة لا تزال تهجس في خاطري تضعني على الطريق الذي ابتدأت.

لا، يا مريم.. لا.. يكفي ما حل بنا من ضياع.. إن أمك حتى اللحظة غارقة في خضم الصدمة الأولى.

ولكن!..

ولكن ماذا؟.. لسنا نقدر على تحمل نبأ تضحيات جديدة.. إن ما ألمّ بنا يكفي لبقية العمر.. علينا الآن أن نبدأ من جديد.. خطواته المشتدة كانت تنبئ عن عميق الألم الذي يحياه، وكانت عيناه تنبضان القلق وهاجس الحرمان أكثر من أي لحظة مضت:

إن لم يسعفنا أحمد الزهراوي، فهذا يعني أننا لا نملك شيئاً.. أتفهمين ذلك يا عزيزتي؟.. لا نملك شيئاً.. كل الذي نملكه فرصة جديدة للبدء من جديد في فرنسا.. هذا ما خطه الزهراوي مؤخراً.

أبي.. لا تكن متشائماً.. إن نفوذ الزهراوي يؤهله لأن يفعل الكثير.. سنعود ونتابع حياتنا برونقها القديم.. أما هنا، فأنا لا أستطيع إلا أن أضيء قنديلاً.. أفتح درباً.. لا بد من انفتاح معنى آخر للحياة لأولئك الذين تتحدر حمم الخوف على جباههم قطرة قطرة، فلا ينفكون ينسون بؤسهم حتى تعود لهم قسماهم النضرة الحية.. أرجوك أبي، كلل عملي بدعوات الرضى كما تفعل جدتي الشريفة.. أرجوك أبي، لا تترك إيمانك الراسخ بالحق يندثر بهذه البساطة!.

لم يستطع أن يجيب.. آه يا صغيرتي الكبيرة.. كم تحرقني كلماتك..
حمم الخوف التي تتكلمين عنها لتتحدر على جبھتي الشقية، فتزيد من
أوجاعي وهواجسي بالغد المروع.. كم أخشى عليك يا زهرة عمري!..
كم أخشى على أمك الحزينة، إن قلبي يتلوى ألماً من أجلها.. من أجل
صمتها الذي يذكرني بالمصيبة بكل تفاصيلها ودقائقها.. لو أنني أيتها
الصغيرة، أقوى على تجاوز هذه الارتكاسات الصعبة!.. يكفيني ما
ذقت منها.. يكفيني وبالأ وانهداراً!.

خرج من الصيدلية يجر أقدام الهزيمة.. نعم.. عندما ترتكس
المبادئ.. تتقهقر للوراء.. يبدأ المرء طريق الهاوية.. أنا واثقة أنك
ستعود يا أبي.. ستعود إلى الدرب الذي ابتدأت، فنهلته منه عذباً
صافياً.. وإنما هي الأحزان لما تتوارد على قلبك توارد الأسى الساكن
في كل شيء هنا.. آه يا جدة.. ما أجملك وأنت تنقشين في الذاكرة
الكليمة: واللہ راجعون يا وطن!.

ما إن أدارت ظهرها للباب بعد أن شيعت أباهما، حتى كان صوته
الطفل يتردد في أرجاء الصيدلية الصغيرة:

مریم!.. اليوم كذلك!؟

استدارت بسرعة.. ابتسمت:

إبراهيم!.. أهلاً.

آه قولي.. اليوم كذلك!؟

هزت رأسها ببراءة:

نعم.. اليوم كذلك.. اليوم وكل يوم.

رفع إبهامه إشارة الاتفاق.. قال، وهو يقف لدى العتبة:

في نفس المكان؟!

وفي نفس الزمان.. تمام الساعة الثالثة بعد انتهاء الدوام في الصيدلية.

لم تلبث تلك الهواجس التي سكنها الخوف أن تلاشت سريعاً.. العمل في الصيدلية الآن أضحى أكثر ضرورة من أي وقت مضى.. لا بد من كل خطوة توقف زحف الأسى والتشرد في أرجاء المخيم.. لا للفقر.. لا للعوز.. لا للمرض ينهش كل حياة.. ألا تكفي هذه الفصول التي رسمت المعاناة أفق كل شيء!.. ألا تكفي الأنفاس الزاهقة أن تحيا الموت كل يوم بعيدة عن الوطن؟.. مرت الساعات بسرعة.. هكذا هي الحياة.. نحيا السعادة بلحظات تمر من بين أيدينا مر الوهم.. أما الأسى فإنه الحقيقة التي تظل تجلدنا بسياطها؛ حتى تستنزفنا لحظة لحظة.. ولكن لا بأس.. بمكنتنا أن نوجد الحياة من أصلاب الموت.. الجدة تقول دائماً: يا مريم.. لا تيأسي من ربنا.. ربنا كبير.. يغفر الذنب، ويرحم الضعف، ويشفي المرض.. ويرجع الوطن.. أه يا جدة، لو أني أتوحد بإيمانك المطلق.. لو أني أحيا اعتقادك الذي ينتصب جبلاً لا تزعزعه رياح الشك والانهمام.. إيه يا جدة.. إيه.. كم ينبغي أن أظل بجوارك حتى أتقمص ملامحك؟!.. لا.. لا أريد أن أتقمصها فحسب.. أريد أن أعايشها.. أعايش صدقها الممتد عبر مجاهل الكون وزيف الباطل الذي نحيا.

اقتربت من الشجرة.. كان الأطفال يتقاذفون حولها.. يتسلقونها
ببراءة غابت عن عينيها في مرات كثيرة.. ذات الحوادث تتكرر، فكأنها
وليدة اللحظة.. كأنها لم تكن ذات مرة.. انحراف قليل لزاوية الرؤية
يتكفل بانقلاب غريب يأتي على كل شيء.. يجعل الوهم حقيقة، أو
لعله يجعل الحقيقة وهمًا.. تراني واهمة كما قال أبي.. لا.. لا يمكن أن
أكون واهمة.. فإرادة الالتصاق بالوطن والموت من أجل أن نحيا لحظة
واحدة في ظل القدس الذي نعتقد أنه يستحق أن ننظر للأمر كذلك
بعيداً عن ذاتيتنا وشخصيتنا المفردة.. فالأمر أبعد من ذلك بكثير.

ما إن لمحوا طيفها يقترب من عالمهم البريء حتى جمدوا مكانهم
كما بدا الاتفاق.. عد إبراهيم عدًا تنازلياً:

١، ٢، ٣.. انطلقوا بصوت واحد منظم على الرغم من عدم توحدهم
في المكان.. حيث انسربوا متعلقين بشغف العطش الظميء للأشجار
والأرض والهواء:

«منتصبَ القامةِ أمشي..»

مرفوعَ الهامةِ أمشي

في كفي قصفةُ زيتونٍ وعلى كتفي نعشي

وأنا أمشي

وأنا أمشي

وأنا وأنا وأنا أمشي»

تمايل رأسها طرباً.. نظرت إليهم بعين العطف والإشفاق.. ليتكم
تدرون بطفولتكم الندية عمق السعادة الغامرة الطافرة التي تهبونني
وأنتم تدركون.. تحفظون الأقداس.. الوطن.. ترددونها الآن بألسنتكم
الصفيرة.. لتغدو غداً عالمكم الأوحى الذي تحيون هواءه وتشقون عبير
طهره العتيق.. مدت يديها.. تجمعوا سريعاً حولها.. وإذا توسطتهم
غنت تحلق في عوالم الطهر الصادق.. في الأقداس.. في الوطن.. في
الإرادة الحرة.. في عيني الجدة.. وفي صمت ياسر.. ياسر.. أين أنت
الآن؟

«انهض للثورة والثأر

انهض كهبوب الإغصار

وارجم أعداءك بالنار

واهتف بالصوت الهدار

الثورة.. الثورة..»

رددوا الكلمات كما لو كانوا ثواراً بحق.. تقطبت الحواجب.. كانت
إشارات أيديهم تقول لمريم: نعرف ماذا تقصدين.. ندرك الدرب الشائك
الذي نقف على عتباته لمستقبلنا الذي لا يعرف إلا الفرح والأمان..
الأمان.. هل نحيا حقاً لننعم بلحظة أمان واحدة في ظل الوطن؟

«من غزة للقدس العربي من أسر النقمة والتعب

يا جيل النخوة والغضب»

كانوا يجاوبونها بإحساس صادق رهيف منطلق كطيور تعود إلى
أعشاشها.. كنوارس لم تعد ترفرف فوق شطآن الاغتراب:

«وتدفق نهرًا من لهبٍ

انهض من قاعك وانتشر

في ماء الصفح وفي الشجر

في أرضك وادخل في المطر

وامض كالسيف إلى الخطر»

وآذنت الشمس بالمغيب.. صاروا ينسحبون واحداً واحداً، وهم
لا يزالون يرددون اللحن الأبوي الصامد..

«وامض كالسيف إلى الخطر..»

انسحبوا جميعاً.. وعاد الهواء خواء إلا من أنفاسهم العذبة..
حركاتهم البريئة. كانت آثار السيوف التي صنعوها من أغصان
الأشجار تحكي الكثير.. اقتربت من إحداها.. أمسكتها بحنان جارف..
جلست على الأرض مطرقة تفكر.. نعم.. سأمضي.. سأمضي ولن أبالي
بشيء.. إن الوطن حق لنا.. حقنا أن نحياه.. حقنا..

ظلت تردد وهي ساهمة تخطط الأرض بالسكين الذي مسكت به،
في الحين الذي استأذنت الشمس فيه لعودة عساها تكون قريبة مخلفة
السكون حساً للحياة..



«وتدقق..»

تدقق نهرًا من لَهَبٍ..»

..مريم

جاءها صوته ساكنًا خاشعًا خشوع الترنيمات التي لا زالت تصلي
لله في الأفق القريب أن يجعل الوطن على مرمى أمل.. التقت بسرعة
تستطلع القادم الغريب.. كم كانت المفاجأة كبيرة!..

أنت!.. كيف عرفت مكاني؟.

قال بسكون بالغ:

كل الأولاد يتحدثون عن شجرة السنديانة وأغاني الشجرة..

لم تجب.. عادت إلى الشجرة تتكئ عليها، وتحملها همها الجديد
الذي لم يعد يفاقها.. خطت بسيفها كلمات الأغنية على الأرض..
أخذت تبكي وتبكي..

ياسر.. يدك الشهيدة شكلت المنعطف الذي غير مجرى حياتي
هنا..

كنت أعلم ذلك.. كنت على يقين أنك لن تكوني والانهازام سواء.

نظرت في عينيه اللتين انصهرتا بسواد الليل إلا من التماعة
الأسى.. كانت عيناها تتساءلان بصمت:

وكيف تلمست ذلك؟.

تابع بذات اللهجة الهادئة الخاشعة..



يوم أن كادت روحي تزهب في الصيدلية، وكان نزف يدي يتهددني بالرمق الأخير، تشكلت قوة عجيبة تمتزج في رحمة شفيفة خالصة استطاعت أن تستقذني من براثن وجع لا ينتهي.. إن القوة الكامنة فيك تستطيع فعل الكثير.. قوتك الحميمة التي بمكنتها أن تستعبر أوجاع المخيم.

ولذلك لم تياس من إداناتي المتكررة..

حقاً.. ولم يمضِ وقت طويل..

ياسر.. حدثني عن نفسك..

قصتي هي قصة الآخرين في هذا المكان الغريب.. الأسماء وملامح الوجوه هي التي تختلف فحسب.. ردت بهدوء:

أين عائلتك؟..

عندما هجرنا من بلادنا كان أبي يتهدد ويتوعد، ويحلف بالله أن لايبقي من الغرباء أحداً.. ما لبثت إلا أن سمعت صوت رصاص دوت على إثره صرخة أبي.. كان اليهودي يضحك بجنون، وهو يركله بقدمه اللعينة ويقول: «كوم خبيبي.. كوم واعدمنا زي ما بتكول».. مسكينة أمي.. لم تعش عمراً سعيداً كالنساء.. كل نساء فلسطين لم يعشن عمراً هنيئاً.. ضاع الوطن.. ثم مات أبي.. ولحقه أخي الكبير مهاجراً إلى بلاد لم نعرفها، ولم نعرف عنه شيئاً حتى الآن.. وآخر المصائب كانت في يدي التي تقطعت شرايينها أمام عيني الحزنتين.. إيه يا مريم.. أي قوة مركبة في الإنسان تجعله يحتمل كل هذه المصائب؟.

تذكرت جدتها، وهي تقول: لما ينزل الله مصيبة يكون نزل العزاء قبلها.. حكيت لك يا مريم.. الله كبير.

الله كبير يا ياسر.. يقوي الضعيف.. وينصر المظلوم.. ويرجع الوطن.

تحتارين من الأقدار وتسلمين بها؟

الجدة علمتني كيف أسلم بها.. ليتني أكون بعمق إيمانها وثقتها المطلقة بالأقدار التي لا تصدر عن عبث وغفلة.. تابعت بلهفة:

في ولاية «متشجن» التي كنت أعيش فيها لم أكن أبصر روح الله في شيء.. حتى القيم والمبادئ التي نشأت عليها كنت أدركتها من صلب أمريكا.. أبي لا يصلي.. أمي لم ترتد الحجاب ذات مرة.. وكنت أشعر بسعادة غامرة مع أصدقائنا الأمريكيان.. كنت واحدة منهم لا أختلف عنهم بشيء إلا اللون الأسمر واللكنة العربية التي أتقنها بحسب أصلنا العربي.. وقد أصل ذلك طبيعة الولاية التي أعيش فيها، فهي تحوي أكبر جالية عربية في أمريكا.. لا أخفيك يا ياسر.. إن أمريكا رائعة.. يحيا المرء فيها بأجواء ساحرة رائعة وكأنه يعيش في كوكب آخر.. لكن شيئاً ما يختلف هنا.. ظللت أحاول تلمسه.. في كثير من الأحيان كنت أخفق.. اهتديت أخيراً.. كنا نعرف الرب في أمريكا وقت المناسبات.. الأمريكيان بالكاد يصلون الكنيسة.. وأنا لم أعرف الصلاة أبداً كقيمة عليا تشعرك بوجود الله.. منذ وصلت إلى هنا كانت أول عبارة طرقت أذني تهليل جدتي الحميم الدافئ.. كانت دائماً تردد بعفوية صادقة فطرية: لا إله إلا الله.. ومع أنني لم أكن أبه بها إلا أنها فرضت حضوراً

قويًا بداخلي لا أستطيع أن أخفيه لا سيما عندما كانت تتحدث بيقين غريب عن العودة والوطن والأقداس.. لم أكن أصحو من إغماءة أو غفوة إلا وأسمعها تحكي شيئًا عن الأقدار والسماء والقوة المطلقة.. لأول مرة تتشرب روعي هذا.. في أمريكا الناس يتخبطون ولا يعرفون الله.. حتى الأساتذة الكبار وأصحاب المراكز العلمية العريقة لا أحد منهم بكل الذي وصل إليه يستطيع أن يبلغ ما بلغته جدتي في فهمها لهذه القوة المطلقة.. شيئًا فشيئًا أدركت الواقع الذي أحياه مؤطرًا بهذا الإطار.. إنه شيء ساحر.. ساحر جدًا.. مجرد إحساسك بالتصاق حميم بقوة غيبية قاهرة هو شيء رائع.. أليس كذلك؟

هز رأسه.. أردف:

هل ستعودين إلى أمريكا؟

فلنكن واقعيين.. لا بد من عودة.. سأحمل هذا اليقين بداخلي وأنشره أفقًا جيدًا في كل مكان أذهب إليه.. تمامًا كما أحاول أن أنشر ظل شيء ما يثور بداخلي.. ظل ثورة.. أو فنقل: ظل يقين بضرورة العودة للوطن.. لم أعرف السكون يومًا.. في أمريكا كان الإنسان قضيتي.. ولن يزال كذلك.. كم أنت رائعة يا جدتي وأنت تكسرين القشور بفطريتك؛ لتصلي إلى اللباب وتعلميني كيف أنظر لإنسانية الإنسان بعيدًا عن كل بعد مادي!.. يبدو أن أمريكا وجهت نظري للإنسان من بعده الخالص الخاص المجرد.. بعد مادي أصيل!..

صمتت.. عمّ السكون.. الليل ساكن كان يثير الأشجان، ويطلق كل إحساس صادق حقيق بالحياة جدير بها.. كان النسيم الدافئ يحرك

أوراق السنديانة الفضة، فتنثر ضحكات الصغار وأغانيهم للثورة..
قطعت الصمت فجأة:

ياسر.. أنا لا أقدم اعتذاري فحسب.. أنا أمد يدي للوقوف بجانبك
كذلك.. بجانب كل من يبحث بعينه الشريدتين عن وطن!.





مزق صرير الباب الخشبي الهدوء الذي غرقت فيه في الأشياء
والحكايا.. الجد العجوز يقف مستقبلاً القبلة على سجاده التي لا
يكاد يفارقها كلما دخل البيت.. بينما كانت الجدة ترفع صوتها بين
الفينة والأخرى بلا إله إلا الله محمد رسول الله.. لتتكب ثانية على باقة
الزعر التي بين يديها.. الأولاد جاوعوا والزعرتر يسند الزيت يا جدة..
أما الزوجان الحائران، فكان الصمت ديدنهما لا سيما تلك الزوجة
المسكينة التي لم تعد تعرف طعم الفرح بعد النكسة التي منيت بها..
قبح إبراهيم وحده ينتظر عودة مريم بلا حراك.. عندما يغيب عمر
وأمه لا يعود للعب طعم..

أطلت بقامتها الشفيفة.. همت بإلقاء التحية، ولكن إبراهيم باغت
الجميع بصراخه:

مريم.. يا جدة، هذي مريم وصلت.

ضحكت الجدة، وهو يتلفت من بين يديها لاستقبال الحفيدة
الحبيبة.. بدأ بالغناء كأنما تجسدت مريم طاقة الانطلاق الساحر:

«وقفوني عأحدود

قال بدن هويتي

قلتلن والله يا خي

خببئتها عند ستي»

ترنمت مريم بالكلمات التي يتشكل طيفها إرادة فطرية بالحياة..
بالعودة.. بالجذور التي تمتد لتحيا في رحم الأرض.. رحم الأرض
فحسب.

السلام عليكم..

رد الجميع بلا انتظام:

وعليكم السلام ورحمة الله..

التفت إبراهيم فرحاً إلى الجدة..

يا جدة، هذي مريم وصلت.. نظر في عيني مريم.. نادى:

مريم، هذي الجدة أحضرت لك هدية.

أسرعت مريم، وقبلت يد الجدة، ووجنتها:

الله يديمك يا جدة..

بادر إبراهيم متوجساً:

أحضرها أنا يا جدة؟

لا، يا إبراهيم.. أنا بيدي سأحضرها لمريم.

حاولت أن تثنيها.. لكنها كانت سعيدة، وهي تخطو مستعينة بعاكازها إلى الغرفة الصغيرة الداخلية من أجل مريم.. مريم الخير والبركة.. «تستاهل مني هذي القومة يا ولد».

أسرع إبراهيم مغطياً عيني مريم استعداداً للمفاجأة.. كان الجد قد أذن بانتهاء صلاته، إذ رفع صوته بالسلام.. عاجل إبراهيم:

اترك مريم يا ولد.. لا تزعجها بتغطية عيونها.

بادرت:

تقبل الله يا جدو.. إبراهيم صاحبي ما يزعجني.

ظل ساكناً حتى جاءت الجدة.. كانت تحمل الهدية بيدها الطاهرة، وهي تردد:

الله.. «والله يا مريم، تستاهلي كل خير».. لا إله إلا الله.

ردد الأب:

الله يديمك يا أمي.. ما تقصرين.

أردفت الأم بتصنع:

والله يا جدة، غلّبتِ نفسك.

ردت على الجميع بتهليلها الحميم.. كان إبراهيم يتقافز على الجانبين، وقد ثبت يديه على عينيها الحالمتين:

آه يا جدة.. أترك عيونها؟

قالت بهدوء وثقة:

تعالى يا جدة.. تعالى يا مريم.

أزاح يديه الصغيرتين عن وجهها.. نظرت، فإذا بدوائر ضبابية
تدور أمام عينيها:

اللَّهُ يسامحك يا إبراهيم.. شددت على عيوني كثيراً..

فركت عينيها بهدوء، حتى صار بمكنتها أن تبصر جيداً.. كانت
المفاجأة رائعة روعة كل ما يتصل بك يا جدة.. أسرع إليها، ورمت
بنفسها في أحضانها الدافئة:

اللَّهُ يديمك.. كنت ناوية أصلي العشاء معك اليوم، وأطلب منك
الثوب يا جدة.. كأنك قرأت ما يدور في رأسي.

ومن قال: إن الجدة لا تقرأ.. إنها وحدها بفلسفتها المؤمن العميقة
من قرأت كل هواجسي، فانطلقت بثقة فريدة نادرة تحوك الأمان
لحظات حياة.. من غيرك يا جدة.. من غير تهليلك الحميم.. من غير
صلاتك الخاشعة.. من غير يقينك البارد برجعة الوطن منطلقاً من
القوة الغيبية التي تؤمنين بها.. من غير هذا، ترى ما الذي كان من
الممكن أن يحدث؟.

أمسكت الثوب بكلتا يديها.. ثوب فلسطيني رائع يتماهى فيه الوطن،
كما تماهت الألوان والرسومات تحكي الجمال الحقيقي الضافي على

نفسها الطاهرة.. الله يا جدة.. ما أجمله!.. ما أجمل يديك الحانيتين!
تسجان الجمال المؤمن بيقين دافئ حميم؛ ليتعالى على كل عوالم
القهر والحرمان.. وعلى كل عوالم الزيف النكد يرسم الإنسان بلا
إنسان.. سارعت لارتدائه.. لأول مرة تبصر نفسها بهذه الشفافية..
كان الثوب ينساب سابقاً على جسدها الصغير آية من الطهر الشفيف..
لفت النشال الأبيض على شعرها الأسود الناعم.. فتكشفت آيات الجمال
فيها.. الله يا جدة، إني أبصر وجهك في وجهي.. أحقاً أكونك؟.. أحقاً
سيسكنني هذا الإيمان الخالد؟.. إنني أنهل من معينك الصافي كأشد
ما يكون العطش.. ويكأن عمري أغرق في بحر الظلم، حتى أن له أن
يروى.. لم تروني أمريكا يا جدة، كما رويتني من صدق شفاهك التي
تفتر عن عمق الإيمان الساكن في أعماقك، وهو يتلو الآيات مترنماً بها،
واثقاً بقدرتها على المستحيل..

في الساعات الأخيرة من المساء كانت الجدة تقطع الليل بصوتها
الرادف المتهدج، وهي تتلو آيات من القرآن الكريم.. لم تكف عينا
الناشئة على هذه العتبة المقدسة عن البكاء.. كان خفق قلبها يتناغم
وآيات الكتاب الكريم.. يشد حيناً.. ويطمئن ساكناً هادئاً في حين
آخر، حين كانت الآيات تتكشف عن رحمة الله بعباده، وقبول إياهم في
دروب الصالحين..

جدة.. لن أخلع الحجاب..

تهللت أساريرها.. ضمته إلى صدرها بقوة..

أنت الخير والبركة يا مريم.. الله يرضى عليك..



وعليك يا جدة يا مرفأ الإيمان، الذي ارتميت على تربه الندي
غريقة شريدة.. وي كأنك يا جدة، تستقذين عمري من شقائه وعبثه
القديم.. نعم.. القديم.. كيف قضيت عمري بعيدة عن مهد الحرم؟
أيغفر الله يا جدة؟.. «الله كبير يا مريم.. يرحم الضعيف.. ويغفر ذنب
العباد.. ويطعم الفقير.. ويرجع الوطن».

كان عقب الأيام الممتدة في رحم الغيب المقبل حانياً ساكناً.. كانت
يهاها الساكتان لا تزالان تملآن النور في القناديل المطفأة المنسية
على هوامش الزمن.. أما السيد أحمد الزهراوي فقد كان انتظاره
مرتبطاً بإرادة الله.. تلك الإرادة الحكيمة الرحيمة التي لا تغفل عنها
عن أحد.. إيه يا أحمد الزهراوي.. لا يزال ذلك يتراقص أمام عيني
أملاً لا ينتهي.. ولكني لن أعود كما بدأت.. هذه المرة سأعود وفي
قلبي إيماني بالقوة الإلهية القادرة على كل شيء.. الحانية التي ترحم
رؤوسنا من تساؤلات كونية تظل راكدة في الأعماق.. تؤرقنا بين الحين
والحين، ولا يكون منا إلا أن ننساها في خضم الحياة التي نحيا.. لن
أنسى.. سأحملها في قلبي، ويكون هذا الشال الصافي صفاء روح الجدة
دليلاً على وجودها واستقرارها في العمق.. ولتقبل رجائي هذه المرة
بعودتك بعد أن أضيء هذه القناديل التي لا يكمن أن أرتحل من دونها.
مريم.. ما الذي نتج من هذه الزيارة؟

قال، وأوراق السنديان تتمايل متناغمة والنسيم البارد يظل
غناءهما المكدود من السعي الشاق وراء كل معنى للحياة:

اتفقت مع التاجر على الأسعار.. أول الشهر القادم سيذهب إلى
العاصمة، وأكون قد هيات الأمور كلها مع نساء الحارة.. الأثواب..
السلال.. المربيات..



تابع:

أخشى يا عزيزتي..

لا تخشَ يا ياسر.. لن ننسى الأرض التي تحن إليها كل جوارحنا..
لكن الحياة مع الفقر والحرمان مستحيلة.. إن الجيل الذي سيرفع
الراية يجب أن يكون على قدر المسؤولية.. الجوع لن يفعل ذلك..

باء كل منهما بالصمت تاركاً العنان لعينيه أن تسرحا في المستقبل
البعيد.. احتضن يدها المتشقة.. أدار الخاتم الذي توسط كفها
الأيمن الرقيق:

إيه يا مريم.. لقد كان حلمًا..

ضحكت:

وهل تحقق؟

لن تزال حلمًا..

وأنت كذلك يا ياسر.. صمتت برهة، ثم تابعت، وهي تحديق في
عينيه الغائرتين:

ليتني أستطيع.

صمت منتظرًا.. بينما تابعت، وهي ترنو للأفق:

أتشكل وطنًا تحياه دون خوف أو هاجس ألم.

أحبيتك وطنًا.. منذ عرفتك عرفت السلام.. عرفت الأمان.. مريم..
إنني معك أستطيع أن ألمس دفء الوجود.. الأمان الذي شقيت عمري



بحثاً عنه، ثم ارتددت عبر مجاهل الغدر والفجيعة مرتكساً منهزماً
لا أملك من الحياة شيئاً.. نعم.. أنت وطني الذي يتشكل طيفه جذوراً
تأخذني إلى الكروم وحوش الدار.. إلى الذكرى التي تشهد بطفولتي
وكوني إنساناً يستحق الحياة..

تذكرت أصدقاءها، خطيبها الأول.. كانت هذه الكلمات غريبة
على أفهامهم.. بعيدة كل البعد عن أذهانهم التي أغرقت في ماديتها
ونفعتها.. كانت تبحث دوماً عن إنسان ما يبصر فيها ما لا يبصره
الآخرون.. يلتمس البعد الشفيف الطاهر في الداخل، بعيداً عن
القشور التي يلوثونها بعيونهم النهمة.. أستطيع الآن أن أفهم شعوري
تماماً.. أن أحدد ملامح الغيب الذي كنت أنتظر.. عندما سمعته يتلو
على أسماعها ترانيم الحب المجدولة بالوطن.. عندما تشكلت عيناها
نجمتين ترفعانه من تلك الزوايا القميئة المنسية في الأرض الغريبة..
عندما انبعث عبق روحه الطاهر الشفيف نسيماً ينشقه الدحنون في
الأرض الفقيدة الكليمة.. عندما امتدت وطناً بسط ظله الرهيف على
عوامله البريئة الجميلة كان لا بد لروحها أن ترفرف نورساً على
شواطئها الشريدة..

ياسر.. أنا كذلك أحبك وطناً لم أعده من قبل.. إنك ترسمني
بريشتك الفنانة أفقاً آخر.. لوناً مختلفاً تماماً عن كل تلك الآفاق
المتشحة بلون الحياة الدونية.. كم تضفي ألوانك سحراً خاصاً بديعاً
على كل معنى جدير بالسمو.. عيناك ساحرتان.. ألوانك مفتاح لأسرار
وجود.. حتى كفك الراجف يتبدى عن إرادة وليدة بتمسك آخر حقيقي
للكون الذي يمتد زيفاً وزوراً..



ضمها بيده الراجفة التي تعشقت الوجود أماناً لا يجيء.. أترك
أيها الوطن الحبيب، تستطيع أن تلم شعثي المنساب عبر سني العمر
المهدورة وجعاً ونزقاً؟.. أترك تسدل الستارة على آخر فصول الحكاية
البائسة التي أخذتني في دوامتها العاصفة عمر النكسة والانهازم..
مريم.. شديني إليك.. إلى عينيك النجمتين؛ لئلا أعرف السقوط..
وامتدي حقلاً من سنابل قمح يزرعني سلاماً؛ لأزهر برعمًا صغيرًا
يستقبل الشمس والنور بلا انحناء أو هوان..

كانت تدرك الفجيعة تقتل داخله.. إنها تذكر السؤال جيداً.. تجيء
حروفه واضحة وضوح الأسي الكامن في كل شيء: ترى، أي قوة مركبة
تجعل الإنسان يحتمل كل ذلك؟..

ياسر.. إنك الفجيعة التي منيت بها كبيرة.. ذوى الوطن أمام عينيك
كأبسط ما تترنح زهرة.. ارتمى أبوك بلحظة غادرة سريعة مجنونة على
يد غريب الدار الذي انتصب وطنًا مزعومًا.. اغتالوا ألوانك التي دأبت
على رسم الوجود حقيقة ساطعة كالشمس التي تشرق على دحنونك
المغدور، وحوش الدار الذي يرتمي أنينه على أسماعك الطفلة بكرة
نهارك وأصيله.. أما وطنك الصغير فقد تهاوى في ليلهم الدامس،
تاركاً أنسك بالصغيرة أوراقاً مبعثرة لزهرة لم تعرف الحياة.. حقاً
يا ياسر.. أي قوة عظيمة تحيلك إنساناً صامداً قادراً على مواجهة كل
ذلك؟.. إن روحي كادت تزهق لمغادرة أمريكا، وأنا لم أعان شيئاً من
كل ذلك.. أنت قوي يا ياسر.. إن قوتك مبعث سرك.. لا تتوهم.. لا تظن
أنك ضعيف.. إنني أحاول التحليق؛ حتى أصل ذراك.. استعلاؤك على
كل الضعف المحدق بك يرفعك فوق سمائي التي تبصر نجوم الحب

فيها.. أنت قوي يا ياسر.. قوي.. إلى الحد الذي يدفعني للتضحية من أجل عينيك اللتين لا تكفان عن زعمهما كسيرتين.. أمي الراضية لا بد ستذعن في آخر المطاف.. أبي اللاهث وراء مستقبل رغيد هناك في وطنه الغريب سيسلم لإرادتي، بعد إذ أذعن غير مختار.. سأتحدى المستحيل من أجل عينيك.. من أجل لحظة ترسمني فيها وطناً.. الله.. لو تعلم يا ياسر، هذه السعادة الغامرة التي تغدقها على قلبي الصغير.. أحبك سيدي.. سيدي..

انحنت شجرة السنديان على أحلامها الكبيرة الوليدة التي في رحم الأرض.. زرف النسيم حاملاً إرادة غضة صلبة بالحياة.. كشف معالمها جلية واضحة، راسمة حروفها بلون فرشاته الزاهي: قدساً ووطناً!.

* * *

جدة.. سأدور على البيوت بيتاً بيتاً.. وسأكتب، سأكتب كل شيء؛ حتى لا يضيع الوطن!.

إيش يا مريم، بماذا تفكرين؟

يا جدة.. كل شخص خرج من فلسطين يجب أن يعرف، يجب أن يسجل اسمه حتى لا يضيع مع الزمن.. سأكون سجلاً كبيراً يكتبه الشيوخ والكبار؛ ليقول للجميع: الأرض أرضنا والوطن وطننا.. ونحن أبعدنا من ديارنا إبعاداً، وكتبوا على جبيننا: لاجئين!.. لاجئين.. يا وطن.. وأنت وطن غريب!؟



والله كلام معقول يا مريم.

سأبدأ منذ اللحظة.. سأبدأ من طهرك يا جدتي.. وأكتب باسمك
من أخرج منا الدار التي تحنين إلى كرمها وحوشها.

والله يا مريم، الحنين يقتلني.. يا رب، أعيش فيها، ولو آخر يوم
من عمري!.

الله يعطيك طول العمر يا جدة.. طول العمر، وأنت تزرعين اللوز
والزيتون في الأرض التي تحبين.

الله يسمع منك يا مريم.. ومن معك في هذا العمل؟.. ستتعين
يا مريم!.

ياسر يا جدة، سيكون معي.. أهل المخيم عندما يفهمون ما أريد..
الصفار الذين ستكبر الإرادة في عيونهم كل يوم جديد.

الله يرضى عليكم يا مريم.

آه يا جدة.. كللي عملنا بالرضا.. فالرضا يزرع النجاح.

والله يا مريم، دائماً أدعوكم.. الله يرضى عليكم.. الله يرجع
لنا وطننا.. آه يا قدس، سقى الله أيام الصلاة في حرمك.. تعالي يا
سمية.. تعالي حتى تري ماذا تعمل مريم!.

قفز إبراهيم من مكانه، وهو ينادي:

أنا يا جدة.. اكتبوا اسمي أولاً.



رمقته بحزن.. ليتك يا إبراهيم، تعلم.. كان ينبغي أن نسجل
أسماءنا هناك.. في نور الشمس بدل هذه السجلات التي تجمع أساناً
وفجيعتنا، فنظل نحيا الوجد، لا سيما الذي وصم على كل حياتنا:
لاجئين.. لاجئين بلا هوية ولا وطن..

أخذت الأوراق.. وعند شجرة السنديان الكبيرة في تمام الساعة
الواحدة التقت بعيونهم الحاملة.. كانوا كما العادة يتقافزون في كل
مكان، وهم يرددون أغاني الوطن:

«والله لزرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر،

وأروي هاالأرض بدمي؛ لتعود في وتكبر»

انتصب إبراهيم من بينهم زعيماً قائداً:

اسمعوا يا شباب.. مريم ستقوم بعمل مهم جداً، وعلينا جميعاً أن
نساعدنا.

رددو جميعاً القسم الذي حفظوا:

نقسم بالله أن نفديك يا قدس الأقداس.. بالروح بالدم نفديك
يا قدس.

قدمها بطفولته الغضة:

تفضل يا زعيم.. الدور دورك.

تنحنحت.. رددت كمن يلقي خطاباً جماهيرياً:



أيها السادة.. أيها الشعب الكريم..

ضحك أحدهم.. زجره إبراهيم، فارتد صامتاً مطرقاً..

أيها الأكارم.. حفاظاً على شجرنا وتربها الطاهر تجيء هذه
الخطوة المهمة..

صفقوا بغفوية مطلقة حتى قبل أن تتم ما تريد.. كانوا مستعدين لأي
شيء.. إيمانهم الوضيء يجعلهم يقومون بكل ما يوكل إليهم.. أليست سفينهم
الأمين الذي سيعبرون خلاله هناك.. إلى جنتهم المقدسة.. حيث الحرم
والمآذن.. وحيث الوطن الذي عشقوه إلى حد التوحد الصادق البريء؟.

أفهمتهم بعباراتها الهادئة البسيطة ما يجب أن يفعلوا.. كل واحد
ممن يعرف الكتابة أخذ ورقة خطت عليها بعض العبارات.. كان عليهم
أن يملؤوها؛ لتحكي اسم العائلة اللاجئة أو النازحة كاملاً غير منقوص،
وما كان لها من ممتلكات في الأرض التي ارتحلت غربة وأسى.. هزوا
رؤوسهم موافقين.. استعدوا لإشارة من قائدهم الذي يقف على يمينها
المؤمن بالحق والعدل.. رفع إبراهيم يده الصغيرة مؤذناً بالانطلاق..
ركضوا متسابقين متنافسين لملء هذه الأوراق التي فهموا أنها خطيرة..
وأنها تحفظ لهم حقاً في الأرض التي لم يعيشوا على تربها لحظة..

عادت إلى الصيدلية، وهي حمل الأوراق بيمينها.. كان إيمانها
كبيراً.. سأفعل كل ما أستطيع.. كل ما أقدر عليه، ولو كلف ذلك عمري..
الوطن أغنية من حقنا أن نغنيها.. أن نحيا لحنها وربوعها.. أن ننشق
عبيرها.. أن نتعم بوارف ظلها.. حتى متى يا غريب الدار، تسرق تربنا
وعمرنا، ونحن في الضياع والغربة؟.

وضعت الأوراق.. انطلقت كما العادة ترتب الرفوف، وهي تستشرف المستقبل الجذل الذي يعدها بالسعادة والأمان بعيداً عن جو المخيم.. هناك في أرض الوطن.. لم تلبث أن رتبت الرف الزجاجي الأول، حتى انبعثت قذيفة حجرية اصطدمت به، فأردته شظايا تناثرت في كل مكان.. جحظت عيناها.. ركضت لتستطلع الأمر، فرأت شبح طيف يركض من بعيد.. أسرعت إلى الداخل لتتفقد الأشياء.. حجر كبير كانت قد التفت عليه رسالة.. أدركت ذلك.. فتحتها بتأنٍ وقلق:

أنت أصغر من أن تريني شخصياً.. رسالتي تحذرك، وإلا انكسرت أشياء أكبر.. أكبر بكثير من زجاجك الرديء.

تمثل لها ياسر.. هؤلاء الذين حزوا يده الشريفة الطاهرة.. يا إلهي.. احفظني من كل سوء.. ماذا أفعل؟.. إن القرار الذي بمكنتي أن أتخذه الآن هو ألا أخبر ياسراً.. ولكن لا بد من إخبار الجدة.. فأنت يا جدة، كعمود الدار لا ينهد ولا يتصدع..

أسرعت إلى الجدة.. قالت بيقين يشبه يقينها القديم:

جدة.. إن الغرباء عادوا.

أين يا مريم؟

يهددونني بهذه الورقة.. يطلبون مني أن أصمت..

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

جدة.. لا أستطيع أن أصمت.. يجب أن أفعل شيئاً.



نعم، يا مريم.. ولكن عليك أن تحذري.

يا جدة.. الحذر لم يعد ممكناً.. كل شيء بات معروفاً..

حامت حول رأسها الصغير أغنيات الصغار للوطن، وهم ينشدونها في كل مكان.. في الشوارع.. في البقالات.. في البيوت.. هذه الأغاني التي ولدت رغبة أصيلة للتعرف إلى وطنهم الذي لم يدركوا، فعاد الكبار الذين سكتت عنهم الشمس يتأملون الأفق بحذر ينتظرون شيئاً ما.. طافت في دائرة أخرى شهوراً وشهوراً من العمل المتواصل لطرد شبح الجوع وغائلة الفقر والمرض، حيث تعلمت النساء الكثيرات منهن كيف يشقن الطريق واضحاً بيناً للعمل الذي لا يضطرهن إلى أحد في دائرة أصيلة من دوائر الإيمان والثقة المطلقة بالله وبالحق وبالوطن.. وها هي ذي الأوراق البيضاء تنتشر لا لتعلن السلام، ولكن لتشكل بسواد الحبر راية سوداء تحكي هزيمة الغرباء والانتصار للأهل الذين تجذروا بالأرض الطيبة البعيدة.

هذه النتائج المتوقعة لم تكن تخيفها.. شدها هاجس غريب تجاه ياسر.. ياسر يجب ألا يعلم شيئاً.. إن دوائر الخوف ما زالت تؤرقه.. تخيفه.. تحيله نهب الذكريات المفجعة المؤلمة.. أخاف أن يرتد ساكناً.. لا بد لريشته أن تتحرر من قيدها الأليم.. ياسر.. ما أجمل ألوانك ترسم النصر، وتخط سبيله إلى الحياة!.. فمتى تعود؟.. متى؟

لم تأبه لشيء.. سارت واثقة الخطو كأن شيئاً لم يكن.. إن الدرب الذي آلينا على أنفسنا المضي فيه لا بد أن نقطعه كله.. خطوة خطوة للمجد الذي يجب أن ينتصب لنا.. لنا فحسب.. وليس لغريب الدار والأهل.. ليس لمن سرق الأرض ومضى يزعم الوجود ملك يمين!.



مرت الأيام..

الأم تشعر اللحظة بإحساس غامر بالسعادة والحياة الحققة.. فها هو ذا زوجها سيعود بالأخبار التي ستتهي كل هذه المهزلة.. الجلوس في هذا المكان القميء.. خطبة ابنتها من هذا الرجل الذي اختطفها من بين عينيها العاجزتين عن كل شيء، لتعود إلى حجرها الحاني الحقيقي بعد عالم الوهم الذي عاشته طويلاً، وستعود إلى أمريكا.. حيث تمارس حياتها بشكل طبيعي.. ترى أتستطيع بعد هذا الموت الذي نهش الكثير في الداخل؟..

مريم يا جدة، لم تعد.. أخبرتها أن أباه سيكون في هذه اللحظات في الدار.

والله يا بنتي، أنا قلت لها.. ولكن قد تكون انشغلت بالسجل الذي حكمت لك عنه.

آه يا جدة.. سننتهي قريباً من كل ذلك.. من هذه الدوامة التي وضعتنا جميعاً على حد الموت المفجع.. وستثوب مريم إلى رشدها.. تعود لصوابها الذي أفقدها المكان.. لحظات.. لحظات تساوي مناجم من ذهب، نرتب فيها أمورنا على الرحيل.. آه ما كان أشق الذي مضى!.. من يستطيع أن يصدق أننا أمضينا كل هذا الوقت المأزوم؟.. من؟..

كادت تسترسل في أحلامها في مملكة الحياة الرغيدة التي تنتظرها على بعد أيام معدودات، حيث يتركون هذا المكان بذات اللحظة المفاجأة المفجعة التي قدموا فيها إلى هنا.. ليت الزمان بين اللحظتين ما كان..



ليته تقزم مجرد لحظات تمر في الذاكرة مر الوهم والخيال.. ولكن هيهات هيهات.. لعل الغد ينسي كل هذا الهم الموجه..

وهو قادر.. فقد عاد الزوج الذي بدا موتوراً في كل لحظة مرت به بالأخبار الحلم التي ستعيد لها مملكة أحلامها، وقد انتصبت حقيقة لا وهمًا.. حقيقة ستعايشها بعد أسابيع قليلة في ظل فرنسا، حيث الأمن والعقود التي ترسم الحياة الهائلة لونهاً آخر من الرفاه الذي لم تدرك حتى هناك.. في أمريكا.. صمتك الطويل يا أم، لم يضع.. صبرك على مر الأسى، وأنت ترقبين المستقبل المهدور المنساب من بين يديك بكل خوف وألم يتحول الآن إلى استرخاء أبدي في هذا العمر الذي رأته يمتد أزماناً وأزماناً من الفرحة الوليدة الغامرة.

كادت تسترسل في كل هذا، وتدرك تفاصيل الأشياء لولا الصراخ الذي ملأ الدار، وعينا الصغير تترقان فجيرة..

خير يا جدة.. ماذا حصل؟.. قل يا إبراهيم.

قال بصوت راعش متهدج:

عمي يا جدة.. وجدوه مقتولاً في الطريق.

صرخت:

كيف يا ولد؟.. كيف يا ناس؟..

قالوا حادث سيارة.. حادث سيارة يا جدة!.

تهاوت الزوجة صريعة الفجيرة.. يا لسواد الطالع من كل شيء يقذف الموت في الوجوه الشائثة؛ ليحتم عليها الانكسار المذل المهين؛ حتى لا تسرب من بينها لحظة ضائعة سعيدة..

صرخت الجدة باكية:

قومي يا مريم.. قومي يا بنتي.. لا إله إلا الله.

فهمت مريم كل شيء.. لقد كانت الرسالة واضحة.. وبدأت سلسلة الانكسارات التي خوفوها بها.. حقا.. لقد كان الانكسار كبيراً.. كان الصدع عميقاً هذه المرة.. أعمق بكثير من انصداع اللوح الزجاجي هناك في الصيدلية الصغيرة المرتمية في مكان بائس حقير.. الأشياء تتحول لوحاً زجاجياً كبيراً ينكسر فوق رأسها الشاب انكساراً تلو انكسار.. وتتطلق الشظايا لتدمي جسدها النحيل.. رأسها.. عينيها.. الشظايا تخترق الجوف.. الأعماق.. داخلها ينزف وينزف.. حتى استحالت هي لوحاً زجاجياً رقيقاً كاد ينكسر لولا الإيمان الراسخ الذي يعمل الداخل..

الأم المسكينة فهمت كذلك كل شيء.. أضحت المصيبة مضاعفة.. لم تكن تجرؤ لتوجه الاتهام لطفلتها الوحيدة، ولكنها كانت تقر من الداخل مشيرة بإصبع الاتهام إليها.. نعم.. أنت القاتلة يا مريم.. أنت.. كثيراً ما قلت لك محذرة أن تتركي كل هذه الأوهام.. لكن أنا نيتك وحبك للذات أعمياك عن كل شيء.. ما نفع كل ما فعلت؟.. لقد قتلت أباك، ورميتني وحيدة شريدة من بعده.. أه يا مريم.. من لنا بعده؟.. من؟ من؟

الوجع الأصيل الذي هزها من الداخل لم يفقدها إيمانها الذي تؤصله الجدة بتخليها الحميم: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. إيه يا جدة.. ارفعي صوتك بها.. فهي العزاء الوحيد في ظل زمن التراجع والانكسار..



انتحيت.. سأظل مؤمنة بالأقدار يا جدة.. بالقوة الإلهية الحكيمة التي لا تغفل عنا ولا ترمينا في زوايا النسيان.. وها أنا يا جدة، لا أرفع نفسي عن آلام الآخرين.. أتوحد فيهم.. فيكم جميعاً.. كلنا نضحي من أجل القدس.. من أجل الوطن.. نعم.. الوطن غالٍ يا جدة.. الأحباب كذلك.

أخذت تبكي.. تبكي بعمق.. كان الجميع صامتين.. لم يجروا أحد حتى على العزاء، كان الحادث سكيناً صريحاً تسلط على أعناقهم جميعاً، فالتزموا الصمت وتركوا الموت يهزههم بعنف من الداخل.

ياسر.. الآن فهمت مشاعرك فحسب.. إن الشعور على الصعيد الذهني لا يخلو من فقر حقيقي في العاطفة.. لم أملك إلا ذلك.. لم أصب بفجعة الفقدان حتى يتسنى لي أن أدرك وجعك.. لكنني كنت صادقة.. ويكفيني ذلك.. كنت أحاول أن أتلمس بيدي عمق ما تقول.. ما تهمس.. الآن فقط أعرف السر العميق لانكسار عينك.. لأنني أحياء ذلك، أحياء على صعيد الممارسة الفعلي.. ياسر.. إنني أنتحب.. أبي.. لقد كنت رائعاً بحق.. إن صورتك لن تزال في خاطري تقص علي كل المبادئ التي غرستها في خاطري.. كلماتك قناديل في ليل مظلم دامس، فلن تزال الأجراس التي علقته في اتساع الرحب داخلي تنحني إجلالاً ليديك الجليلتين.. أعلم يا أبي، أن كلماتك الأليمة كانت محض دائرة حزن شفيف سرعان ما تزول.. الألم الذي اعتصرك كان كبيراً، لكنه لن يردك بحال عن مبادئك.. أبي، ها أنت ذا قد سقطت ضحية.. لبيتك تقصدت ذلك.. سافرت هرباً من التضحية، وها أنت أول من يسقط.. لو أن الوقت أسعف روحك المغدورة لسقطت واقفاً

بمحض إرادتك .. سقوطك يا أبي، سمو وموتك حياة .. هكذا هو الموت
في سبيل الأقداس ..

تحققت الأسابيع القادمة مرارة تتقاذفها الأكبادة .. الأم الفجيعة
كانت تهذي .. تفقد صوابها، وهي تجهز كل يوم أشياءها استعداداً
للسفر ثم تهجس في خاطر الصغيرة انتظار أبيها في المطار .. التزم
الجد الصمت .. منذ زمن بعيد يا شمس، لم تأخذي أحداً تغييبه وراء
حدودك اللاهبة .. ترى كم أولئك الذين تتوين ابتلاعهم وترك من
حولهم نهب الذكرى والفجيعة ؟ .. كل الصور الشريفة تتوالى بوضوح
الآن .. يداها العاجزتان لا تستطيعان إبعادها، ولكنها تتسلح بسلاحها
الماضي يقودها برفق إلى شاطئ الأمان: لا إله إلا الله .. لا إله إلا
الله ..

ياسر .. لماذا يستحيل الانكسار الدفين في عينيك انكسارات تعلق
السطح ؟ .. أتوسل إليك يا ياسر، لا تفجعني بنفسك .. منذ زمن وأنا أنتظر
فرشاتك .. ألن ترسم ؟ .. ألن تبعد السواد بألوانك الساحرة الزاهية كما
وعدت ؟ .. سأتابع سبيلي لا مناص .. لا أملك إلا ذلك .. فيما أن أصل وإما
أن أموت واقفة حيثما وصلت .. أما الوراثة فهو الاختيار المستحيل .

لفت شالها الأبيض الذي ارتمت أطرافه على ثوبها الفلسطيني
المتجدد بإيمانها العميق .. استقبلت النور حاملة بالغد الوضيء
بعيداً عن أي ذاتية مقبلة .. كانت الأوراق المتناثرة بين يديها تعلن
الرفض وعدم الاستسلام .. لن يستطيع أحد أن يخفي الشمس بيديه
الآثمين .. لن يستطيع أحد أن يستأثر بالهواء، فيرمينا صرعى خواء ..

سأَمْضِي.. ﴿وَالْبَيْنَ وَالزَّيْتُونَ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ ٢ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٣ ..
بموتك يا أبي، أزهرت أشجار اللوز والكروم.. لأول مرة أبصر حوش
الدار الذي لم أقض فيه طفولتي وشبابي.. وها أنا أقضي فيه أحلامي
بوطن غير شريد.. أقداس لا يعرف حرمة دنس الأثمين.. إيه يا شجرة
السنديان.. ويا أغنيات الحياة، كم أنا ظميئة إليك!.

كانت الأوراق تستعلن كأنها تتحدى.. تفتح يديها للغد المشرق
الوضيء دون خوف أو حزن.. ليضحى الأمل حقاً مشروعاً لهذه الوجوه
المعفرة البائسة دون أن تقام محاكم جلادين لإدانة أحد.. جلست
في الوادي الممتد تظله السديانة.. إيه أيتها السنديان الظليلة.. كم
الوجع كبير.. سمعتهم جميعاً يرددون:

«وتدفق..»

تَدْفُقُ نَهْرًا مِنْ لَهَبٍ

انْهَضُ مِنْ قَاعِكَ وَانْتَشِرْ

فِي مَاءِ الصَّفْحِ وَفِي الشَّجَرِ

فِي أَرْضِكَ وَادْخُلْ فِي الْمَطَرِ

وَامْضِ كَالسَيْفِ إِلَى الْخَطَرِ»

رددت بصوتها السهلي الجميل.. كان الإيقاع متلاحقاً مناسباً يقرر
المضي.. ولكنها لم تتمالك بشريتها.. انطلقت تبكي بشفاوية مطلقة..
تسلقوا الأشجار.. التفوا حولها بعيونهم الآملة في إيمانها الجميل..



بقدرتها الواثمة على تحقيق الكثير.. وبصوت جبلي واحد غنوا جميعاً
يهبونها العزاء:

«مَنْ أَسْرَى النِّقْمَةَ وَالتَّعَبِ

اخرَجُ كالريحِ ولا تَهَبِ

يا جيلَ النُّخوةِ والغضبِ

وتدْفَقُ..

تدْفَقُ نَهْرًا مِنْ لَهَبِ»..

نهضت.. غنت.. حلقت في الآفاق النضيرة الخضراء.. أمسكوا
بيديها.. بشالها الأبيض الشفيف، وكأنهم يتمسكون بعبتها المتصلة
بالسماء.. حيث القوة المطلقة والقدرة القادرة على كل شيء.. ظلوا
يغنون ويصدحون حتى مالت الشمس للمغيب.. فتحت عينيها.. أشارت
بإصبعها الرقيق إليهم ألا يتأخروا عن بيوتهم كما العادة.. وسنعود
غداً يا أحبائي، ونظل نغني ونغني.. التفتت حواليتها.. لم تبصر أحداً..
بدا المكان مهجوراً منذ زمن.. أوراق السنديانة تتساقط وتتساقط..
تحولت الأوراق الساقطة عاصفة رملية تجتاح عينيها.. أعماقها الكليمة
الجريحة.. حتى سقطت على الأرض بلا حراك..

هب نسيم دافئ داعب عينيها المغرورتين بالدموع.. مريم.. إنهم
لا يدركون وجودك هنا.. فانهضي بلا يأس ولا تعب.. سيظلون أجراساً
صغيرة بريئة معلقة على أغصان هذه السنديانة العتيقة.. لا تخشي
يامريم.. هم رائعون روعة حلمك..



اتكأت على السنديانة تلتقط أنفاسها اللاهثة.. لا بد أن أمضي..
ولى زمن الاسترخاء والراحة.. كادت تقوم.. تتابع مضيها الوثائق
بعدالة القضية لولا الصخرة التي انهارت من أعلى الجبل.. حاولت أن
تستدرك استراقه الأحداث واستدارتها الماكرة.. نهضت بسرعة، ولكن
الصخرة عاجلت رجليها الساعيتين إلى النور والضياء.. إلى الوطن
الشريد، حيث تمتد فيه البيارات وأزهار الدحنون والنوارس التي تظل
تغني للوطن والحياة..





لم يغب عن ذاكرتها اللحن الجنائزي الأسود المتشكل الفضاء
الوحيد الذي حلقوا فيه طويلاً.. خطوات الطبيب الثقيلة المتباطئة
كانت توقع الموت إيقاعاً خاصاً تقاطعت في دوائر المفاجأة واليأس..

لن تستطيع المشي ثانية.. العمود الفقري تأثر تأثراً كبيراً عن
ارتدادها ووقوعها على الصخرة الناتئة.. أنصحها بالراحة..

مساحات الضوء التي امتدت طويلاً في أركان البيت بدأت تتحسر
رويداً رويداً؛ لتغطيها بقع العتمة العتيقة المبعثرة هنا وهناك..

الزوجة الذبيحة لم تكد تصحو من مصيبتها الأولى حتى ارتكست
في غور بعيد سحيق تحترق فيه بنار الفجيرة والخوف.. والخوف بات
عنوانها الكبير.. المرة الأولى ارتحلت أمريكا بكل ما تعنيه من حياة
رغيدة شفيفة يعبق في جنباتها عبير الأمن والسلام.. إن الصمت
الذي جلل حياتها إزاء هذه الحادثة ترك في الأعماق أنيناً لا يسكن
تظل ارتطاماته بكل جوانحها تشدها إلى الانهزام والتراجع.. لتستمر

قافلة الموت بالعبور على جسر عمرها الوردي تأخذ في كل محطة عالماً يemor بالحياة.. هذه هي ورثة المخيم.. زوج صريع ذبيح لم يكن من حقه أن يفكر في الحياة.. في الغد.. في الأمان.. كان ينبغي أن يذعن مضمخاً رأسه بعهود (النعيم) يصبها، لتركد في دواخل الجميع.. دواخلك يا مريم، حتى لا تظل تسعى للنور والحقيقة.. هل كان ينبغي أن تفكري في الوطن؟.. في أولئك الذين اعتادوا الوجود في هذا المكان البائس المنطوي على شقاوة عمر؟.. لماذا يا مريم؟.. إن الحياة تسير في المخيم بذات الرتبة التي عهدتها منذ مجيئك.. من يأبه بنا الآن؟.. من يذكر أغانيك للوطن؟.. إرادتك في حياة حرة كريمة؟.. ها هم يسرون.. يروحون ويجيئون.. أما أنت فقد كتب عليك أن تظلي حبيسة مقعد متحرك أبله يؤخرك ويرميك في الهوامش التي كنت تكرهينها.. التي قاتلت من أجل ألا يحيها أحد.. ها أنت تعيشينها، فمن سيرفع عني وعنك هذا الهامش الظالم؟.. من يا ابنتي؟.. من؟..

صارت عادة سمية أن تلعف طفليها بالصمت والانزواء.. لا أغنية للوطن.. لا شجرة سنديانة يتعودان عبرها الوقوف.. الاستشراق.. الدار آمنة.. والزيت والزعتر يسدان الجوع.. ماذا تريدون أكثر ﴿اللَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.. في الخارج رعب.. قبل أشهر قليلة ارتمى عمكم في شوارع المخيم القذرة وكأنه لم يكن ذات يوم شخصية مهمة في الغربة.. مات كالعشرات ممن يموتون كل يوم ولا يسمع بهم أحد.. وها هي ذي مريم ترتمي أمامكم عاجزة بلا حول ولا قوة.. الطريق التي اختارتها لنفسها لا أختارها لكم أبداً.. الصحة حلوة يا أولاد.. وحكايات الجدة تكفي..

الجددة.. لا تصمتي يا جدة.. ارفعي صوتك أكثر.. هدهدي أوجاعي
على رقعة تهليلك.. كنت العزاء الأول لي ولن تزال لي.. جدة.. إن صمتك
وترنماتك الحلوة سواء.. فهانذا أسمع خطو الأقدار داخلي.. أوّمن
بها كما أوّمن بوجعي الآن.. وجعي يا ياسر.. أتراني أحتاج الآن وجعاً
آخر لأدرك شفيف الحزن والألم الذي هزك، وأخذ منك بريق الألوان
والفرح.. إيه يا ياسر.. لييتني أتسقط منك التماعه واحدة تدفعني
للأمام.. أرجوك لا تزد انكساري بانكسار عينك.. احمل ريشتك
من أجل الأقداس.. ومن أجلي.. وحوش الدار.. ارسم الظلمة؛ ليأتي
الصبح.. ارسم اليأس الذي يفتر أخيراً عن ضحكة الأمل.. كما تفتر
شفاه جدي عن الآيات في الصلاة.. ألا ترقب سكينته وتسبيحاته
المؤمنة بالقضاء.. يظل قلبه متعلقاً بها.. فلا يكاد يسلم حتى يرفع
يده بالتكبير.. الله أكبر.. الله أكبر.. لا بد سيرفعا هذا التعالي يوماً..
لا بد..

أما أنت يا مريم.. فإني ارتضيت لك أن تموتي كما تموت الأشجار..
واقفة لا تعرف الانحناء.. أتعلمين لماذا؟.. لأن القوة التي تعتمر جنبك
قوة تستمدينها من الله.. من القوة القاهرة الغالبة التي تترفع عن
عوامل البشر.. ولأنك تعرفين أن الوطن يمتد بالتضحيات.. ما أجمل
شعاراتك وأنت تسبغين عليها حس الحياة.. هكذا يا شمس، يحيا
الوطن.. فضميني إلى تلك القافلة المباركة التي غيبت وراء أستارك
الأمل..

مزق صرير الباب الهدوء الذي خيم فوق سلال القش والزعتر..



يا حاجة.. أين أنت يا حاجة؟.. أين أنت يا مريم؟..

فزعت الجدة إليه.. أدارت مريم عجلة المقعد متلفتة إليه..

خير يا حاج.. عسى ما شر؟.

انتبهت مريم إلى عينيه اللتين اغرورقتا بالدموع.. آه يا جدي..
كم هي اللحظات التي التمتعت عيناك فيها بؤساً وشدة.. تراه يأتي ذلك
اليوم الذي تلتمعان فيه أشجاراً من لوز ودحنون!!..

قال بصوت راعش حزين للعيون التي حدقت فيه:

المختار يا حاجة يقول...

سكتت الكلمات تغور في عالم مجهول أليم..

آه يا حاج.. ما له المختار؟.. احك وما تخوفني أكثر.. احك
يا حاج..

حدقت مريم في عينيه.. مصيبة أخرى يا جدي.. هل تحمل أيدي
المخيم غير المصائب؟.

يقول يا حاجة، صار لازماً أن نغير أسقف (الزينك)..

استفهمت مريم:

جدي.. ماذا يريد؟.

نبني بيوتنا بسقوف من لبن!.

ردت الجدة بعصبية بالغة:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

فهمت مريم.. صرخت:

مستحيل.. سقوف اللبن لبيوتنا في فلسطين.. لأحواش الديار..
وغير هذا لا يمكن أن يحدث..

قالت، وهي تتكى على عكازها الذي هزه التعب والتشرد:

يا حاج.. والناس؟

تعرفين يا حاجة.. الناس هواها في واد.. وتعيش في واد..

والشمس تغيب وراء لهيبتها الجلالد من ينظر للآتين بذات العين؟
يا وطن.. لماذا كلما أردنا الاقتراب ارتحلت؟.. يكاد الحنين يذوينا
شوقاً للمأذن والحرم.. فخذنا إليك.. وغيبنا في ربوعك كما تشاء..

أسقف (الزينك).. ظلت على امتداد الأيام شارة شرعية تحكي
وطناً ينتظر.. تحكي شعباً يحمل حقيبة سفر يتقصد بها وجه الأرض
الغائبة الشريد.. ظلت تلك الأسقف على المدى البعيد تهمس في أعماق
كل من استظل ظلها الظميء أنها تتشكل في المساء درباً للعودة.. لماذا
يا وطن، يتوطنك الغريب وتوطن الأسي والحرماني؟!

أدارت مقعدها المتحرك حول نفسها مرات عدة.. نادت والحيرة
تجللها:

إبراهيم.. يا إبراهيم..



سارع إليها متلهفًا..

خير يا مريم!.. (إيش مالك؟).

إبراهيم.. اذهب، ونادِ ياسرًا وكل الأطفال.. سأراكم عند
السديانة.. لا بد أن نفعل شيئًا..

لّفت شالها الصافي صفاء الإرادة الحرة القادرة.. خرجت
مخلفة وراءها الجدة تذرف الدموع تشق طريقها على قسماتها
المهدودة المنهكة المشردة.. ردد الصدى كلماتها الفجيعة: لا إله إلا
الله.. يا رب، أنت تنصر المظلوم وترحم الضعيف.. وترجع الوطن..
أرجع وطننا يا رب..

هذه المرة يجب أن نقول جميعًا شيئًا.. يجب أن نقف على صعيد
واحد نستشرف أفقًا واحدًا.. ذات الأفق الذي يرسم زهرة المدائن
العابقة بسحر القداسة والطهر العتيق.. الأشجار يا وطن، عندما
تتعري تتكشف حقائقها.. الآن كل الأوراق تساقطت.. تكشفت عن
الأوجه الحقيقية.. وما عادت تخفي وراء اللثام شيئًا.. إن ذر الرماد
في العيون لن يخلق وطنًا جديدًا.. لن يقنع أحدًا بالغبرة.. ليظل الوطن
للغريب.. ترى ماذا سنقول لسنوات النضال التي انقطرتنا في لحظاتها
المأزومة قطرة قطرة تستنزف فينا كل أمل وليد بالحياة، وانقطرت
هي انسحاقًا ووجعًا يتلوى على مشارف الطرقات السوداء.. ماذا
سنقول للأجيال الممتدة منذ الانتكاسة الأولى والوطن ينسرب من بين
يديها سنبله سنبله تكاد تذوي هزيلة على عتبات الانهزام الذي لا يعرف
التراجع؟.. حتى متى يا قدس الأنين؟.. حتى متى يقتلنا الصمت؟..

ينغرز الخوف في عيوننا شوكة تشمل النور والحياة؟ .. حتى متى نهدهد
جراحاتنا لتكبر استسلاماً وارتحالاً؟ .. متى يزهر الجرح براعم نصر
المستقبل؟ .. ياسر، إن صمت الصغيرة المجدول بانشداده القديم
للقدس لا بد أن ينطق رفضاً.. تمرداً.. إرادة حرة بالله.. بالحق.. أن
الأوان لريشتك يا سيدي، أن ترسم دروب العودة؛ لتضحك أمك الداوية
ويعود الأب الصريع يزرع الحوش وتزهو في كفه البيارات!..

ظللتها السنديانة.. وصلت مبكرة، فانعطفت تتكئ على جذعها
الصلب الوفي.. لست أخشاك.. أدرك تماماً عينيك الداقتين تأخذاني
إلى أفقهما المسكون برغبة العودة والسلام.. إن شيئاً لن يخفيني من
الوجود، فكل ملامحه تتشكل قسماً دفيئة تحكي ضحكة الوطن..

سمعتهم يضحكون يغنون:

«منتصب القامة أمشي..»

مرفوع الهامة أمشي..

في قصفة زيتون وعلى كتفي نعشي

وأنا أمشي»

مرت اللحظات ساكنة هادئة.. ينعطف الزمن على الزمن، وهم:
لما يجيئوا.. ياسر، أين أنت؟ .. أيها الأصدقاء الأمل.. أين أغانيكم
الحلوة؟.

سمعت صوتاً من بعيد.. التفتت.. كان خطوه كسيراً:

إبراهيم.. أين هم؟ .. أين ياسر؟ .. أين الأصدقاء؛ ليقسموا للقدس؟.

جلله الصمت.. لم يجرؤ على رفع عينيه الحالمتين البريئتين في
عينها اللتين اتقدتا وطناً شريداً.. هزت كتفه الصغير.. ذرف عبرات
سخينة حزينة.. لم يتمالك ذاته الكبيرة.. ركض إلى تلة قريبة يحملها
أهاته التي تعصر الداخل وتهز كيانه؛ ليرتمي على عتبات الأقداس
والوطن والذي لم يلتق..

أدارت عجلة المقعد مستقبلة الأفق، وهي تنصهر في أوراق
السنديانة.. سمعت الأطفال يغنون بعزيمة حكايا العودة والدحنون.. وشيئاً
فشيئاً كانت الألوان تنفرز في الأفق، فترسم ملامح الوطن.. ياسر.. كنت
أعلم أنك ستعود.. كنت على يقين بأغانكم الرائعة للوطن..

نهضت تعنتق الحكايا وضحكة الوطن.. تعلقت بامتداهما الدفيء
الحميم، فانتصبت قامة شفيفة من سنابل قمح برية.. تحولت في
لحظة غادرة واهمة بحكايا الأطفال وياسر شظايا شتات ترميها
انكساراً بارداً.. تمسكت بالجذور تحاول النهوض.. عجالات الكرسي ما
زالت تدور وكأنها تسحق الآمال الوليدة.. جاء صوتها بعيداً مؤمناً:..

«ارجم أعداءك بالنارِ

واهتف بالصوت الهدارِ

قسماً بالله الجبارِ

سنعود لتلك الدارِ..»

دعد رشاش الناصر

عمان ٢٢/١٢/١٩٩٩م

منشورات رابطة الأدب

الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للآداب الإسلامية.
- ٢٤- الآمال صارت آملاً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفى أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزديناه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباتي.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩ - «عقد الروح ديوان شعر» نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.
- ٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينه قدور.
- ٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.
- ٣٣- نوبة قلبية - قصص قصيرة من الأدب الأردني - ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم.
- ٣٤- مخيم يا وطن - رواية - دعد رشاش الناصر.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تفريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مفرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٢٤ - ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ - ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org